المدينة الحافية

خيري حمدان

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الرواية الفائزة بالجائزة الأولى لنادي القصة
عام ١٩٩٢

اهـــــداء الى :

ـ اتحاد كتـــاب مصر .. الى نادى القصـــة المصرى .

ـ القلوب الطيبة التى كان لها أثرا فى حيـــاتى .

ـ الى زوجتى .. وأبى وأمى ..

ـ الى أبنائى الأعزاء اســـلام ومحمـــد وبسنت .

الفصل الأول

عند مطلع شمس أحد أيام شهر سبتمبر عام ٠ ٠ ٠ ٠ ٠
خرج سلامه من بيته يحمل حقيبة ملأها بالملابس وقليل من الكتب ٠٠ وفيما كانت ساعة محطة القطار تدق السابعة صباحاً ٠٠ تحركت عجلات القطار الى أحد موانىء البلاد ٠٠ حيث ركب فى العربة الأخيرة ووضع أمتعته بجانبه ٠٠ وكان القطار يتمايل يمنة ويسرة من تهالك عرباته القديمة ٠٠ وفى رأسه ضرب شديد من التفكير جعل دماغه يدور ٠٠ وحاول مسك زمام نفسه وهواجسها فاضطجع الى الخلف ووضع رأسه على مؤخرة الكرسى ٠٠ وحاول أن يذهب فى نوم يريحه من عناء الوداع فى بيت أبيه ٠٠ لكنه لم يستطع الذهاب فى بعض النوم ٠٠ كان لابد أن يبكى ٠٠ كل آلامه وأحزانه تجمعت لحظة وتساقطت فى دموع غزيرة ٠

وكانت العربة خالية الا من ثلاثة رجال يغطون فى نوم عميق ٠٠

وبدأ القطار يمضى من مدينة الى قرية الى نجع ٠٠ وجاءه النوم ٠٠ ومر عليه المحصل فلم يوقظه كما فعل مع الآخرين ٠٠ وكان الرجل الطيب يعرف أن هذا قطار المسافرين الى بلاد الرحيل الجديدة ٠٠ انهم يسافرون عن طريق الميناء لرخص

تذكرة كثيراً عن الطائرة .. هكذا قال لنفسه .. انهم فقراء مساكين مثلى .. وكان فى كل رحلة يجد متعة فى تأمل ركابه .. حتى أن المحصل ذهب فى النوم مع زبائنه .. ونام القطار حوالى الساعة فى محطة « الندهة » لعطل فى القضبان .. وقلق سلامة لنوم العربات الهالكة وخاف أن يطول نومها فتطير الرحلة .. كان متوتراً من النوم الذى أخذ الجميع .. كان يريد أن يفر .. لقد ذهب ليأكل .. ليملأ بطنه الفارغة التى هوت من كثرة طعامه بتاو وجبن وفول فى الصباح والمساء .. كان أبوه يقول له : اذهب لتملأ البطون الخاوية لاخوتك .. اذهب .. وغط فى نومه بعد أن قام القطار من الندهه .. ولما استيقظ رأى الشمس قد صدحت وانتشرت فى طول الطريق وعرضه .. باتت عربات القطار كالحة تفوح من مصاريعها ومقاعدها رائحة الصدأ وكان سقف القطار يبرز منه أسلاك دهنت بطلاء لصيانتها .. وأرضية العربة بها أكوام من قشر البرتقال والخبز القديم وقشر السودانى وبقايا من المخلل هذه الأكوام اختلطت رائحتها مع الصدأ فأخرجت رائحة مخلل من نوع جديد كأن القطار معمل من معامل الطورشى المنتشرة فى حى كان القديمة .. وقام أحد الرجال من نومه يقول بين فينة وأخرى بأعلى صوته :

ـ حى مدد .. مدد حى ..

وكان النائمون يفزعون لكنهم يبتسمون ثم يغمضون عيونهم لنوم جديد .. وأخذ سلامه يدخل عربة بعد أخرى

بحثا عن واحـدة لا تنبعث منها رائحة كريهه .. كانت عربات القطار مكتظة عن آخرها بالراحلين وكانوا جميعاً قائمين وروائح أخرى تنبعث غير رائحة العفن . وبعد عناء عاد الى مقعده في العربة الأخيرة وفتح النافذة ..

ونزل من القطار في محطة الميناء وكأنه يجرى .. كان الجميع يهرولون وكثير منهم يبصقون على الأرض .. وآخرون يتبولون في العربة وغيرهم قعد يتبرز بين العربات .. المحطة أكوام من الرمال فقعدوا يعملونها خلفها وكانت دورة الميـاه عائمة في مياهها القذرة وشيء طبيعي على هـؤلاء الراحلين أن يخرجوا نفاياتهم في الهواء الطلق حيث يقومون بهذه العـادة بين أعواد الذرة في حقولهم وأجرانهم .. ولمـا دخلوا المدينة كانوا على درجة عالية من التزين .. لقد أفضـوا جميعا بكل أسرارهم في القطار والمحطة .. وتشنج سلامة وهو يدخل المدينة وترنحت ساقاه وشـعر بهزة في رأسـه .. وركب مع ثلاثة عربة كارو حملتهم الى قرب الميناء .. وطلب أحدهم من الحوذي أن يذهب بهم الى أي مقهى في هذا الحي القريب من البحر .. ولم تكن هناك أدنى صـلة بين راحل وآخر فكل يحلق في عالمه الذي يتركه وعالم المجهول الذي يرحل اليه .. كانوا خائفين متوترين لكن كل واحد منهم يخفي توتره محاولا السيطرة على قلقـه . وفي ركن بالمقهى انزوى سـلامة يتناول بعض طعامه ويشرب الشـاى ..

اقترب الوقت من الظهيرة .. فدخل أحد المساجد وصلى بعدها قرأ في كتاب الله .. وكان في الوقت متسعا وعليه أن يجول في البلدة بعض الوقت .. مدينة انتشرت فيها الأحياء الخربة .. أكوام من التراب والطوب والحجارة .. تصدعت منازلها وتمايلت .. تفلقت جدران البنايات العالية .. أحياء تكاد تكون خالية من سكانها .. انتشرت الحانات التي تقدم البوظة والخمور الرديئة .. وفي كل حي يوجد ملهى صغير يديره رجال سيئو السمعة .. ولم يجد مصنعا في المدينة .. هناك بقايا ورش ومعامل تنتج سلعا رديئة وأهم أسواقها سوق السمك .. انتشرت المطاعم الصغيرة في كل مكان لاشباع حاجة الترانزيت . وفي كل حي يوجد بيت على الأقل لممارسة الدعارة يجلب اليه عدد من الصبية ورجال في الأربعين من العمر الزبائن من القادمين أو المسافرين مقابل نسبة من صاحب الدار وبقشيش من الزبون .. أي درجة من الأمان في مدينة تعتمد على الخطف والنصب .. هل ايجاد حالة من التوافق النفعي بين كل الأنشطة البشرية حتى القذرة منها يوفر أي درجة من الأمان الغذائي أو الصحي أو .. بين الناس .. هل الأمن هو حراسة كل يزني ويسرق ويغبرك .. هل يريد الجميع أن يعيش بأي شكل فنعتمد الأيدي على التهليب والعين على العيب .. وكل أفكار الرأس تنصب على التجارة في أي شيء .. حتى الانسان يباع ويشترى في أسواق مدينة بلا حارس .. هل كل الذين يدفعون

يتوفر لهم الأمن ومن لا يدفعون يذهبون حيث تسقط بهم الريح .. أى شيء فى مدينة يتولى أمورها بشر كالأغنام ؟.. أين جو الحياة الصحى ؟.. أين الحب الحقيقى والربح الحلال ؟.. أين حياة الصالحين ؟.. هل الصالحون خطر على الأمن ؟.. لو كان فى مدينتى شارع للصالحين لذهبت اليه !.. كان سلامة يمشى يفكر ويتساءل ولا أحد يعرف ماذا فى رأسه ولو عرفوا لسخروا منه وازدروه .. ولم يجد لأى تساؤل فى رأسه اجابة .. وتمنى أن يفر بلا رجعة .. ولما دخل المركب كان العالم كله أفاقا فلماذا يذهب ؟..

.. وفى أول يوم فى عاصمة الوصول لم يجد مكانا واحدا فى فندق ونام فى حديقة .. وفى اليوم الثانى نصحه واحد من أهلها بالذهاب الى الضواحى .. وركب الباص الى أحدها .. وبحث عن مكان فلم يجد ، وشعر بتعب شديد وقعد فى أحد المقاهى على رصيف الشارع .. وأمسى الليل واختفت النجوم فى السماء من شدة الظلمة .. وظهر المارة أمامه كأنهم تائهون وبلا مأوى .. ومال برأسه على رجل من أهل المدينة يجلس بجواره :

ـ ألا توجد فنادق فى المدينة تأوى حماراً مثلى ؟.. وابتسم ..

فتعجب الرجل من واحد يشتم نفسه وقال :

ـ الحمير القادمة ملأت كل مكان .. وهناك منها من ينام على أسطح الفنادق ..

سلامة ــ وماذا أفعل يا سيدى .. هــل أنام فى حديقــة مش الأمس ؟..

الرجــل ــ من يجبركم على ذلك .. تتركون بيــوتكم واهليكم و ..

سلامة ــ الكفاح .. لقمة العيش ..

الرجل ــ ماكو عيش فى بلادكم ؟!..

سلامة ــ أريد أن آكل الباجه .. (لحم الرأس) .

وهز الرجل رأسه ونادى على الجرسون :

ــ قورى شاى يا حمار ..

وكان الرجل يشرب الشاى وكأنه يلهط طبقا من البليلة .. ورأسه الكبيرة تهتز يمنة ويسرة استمتاعا بالشراب .. ولما نادى الرجل ثانية :

ــ شيشه يا دنكى .. وضحك وابتلع سلامة بعينيه وقال :

ــ مش دنكى يعنى حمار .. مش كده ..

سلامه ــ يعنى حمار .. يعنى يا حمار ..

وقام الى الشارع يحمــل أمتعتــه ، ونزل الى قلب الحى القديم حيث وجد مكانا فى فندق صغير .. ولمــا أبرز جــواز سفره ومقدم الحجز لصاحب الفندق .. كان أحد العاملين من كان يحمل حقيبته الى الغرفة رقم ١٩ .. وتمدد فى فراشــه بملابسه مستغرقا فى ذهوله .. وحدق فى نزيلين بجواره وقد

غلا شخيرهما .. وتمنى لو يفعل مثلهم لينسى تعب وأحداث رحلته .. قام وخلع ملابسه ثم اغتسل وصلى ودخل فى فراشه لينام حتى صباح اليوم التالى .. حيث شعر بنوع من الازدهار يتفجر فى داخله وأن مساحة اليقظة فى رأسه تستوعب عالما آخر غير عالمه .. ولما قام وصلى تحسنت سريرته وشعر بقدر كبير من الاطمئنان يدخل قلبه .. وانبطح على بطنه قليلا يفكر .. وفجأة ارتدى ملابسه وغادر الفندق الى ساحة الحى .. وحفلت نفسه بكثير من الأمل وهو يجلس فى أحد مشارب الشاى التى تطل على الميدان .. مركبات من طائفتين .. مطاعم .. حوانيت .. أناس من كل العالم يروحون ويجيئون .. عربات صغيرة للطعام تقف فى كل الزوايا .. عدد من نساء الحى هنا وهناك وأجمل ما فيهن عباءاتهن السوداء وملامح وجوههن البيضاء وعيون كحيلة شديدة الحياء .. وأخرى شديدة اللهب ومنهما ما تعوى لكنها تتكسر نحو الأرض فيخبو الهواء .. لقد جعلن من ساحة الحى الخالية من نافورة للمياه أو وردة هنا فى حديقة أو زهرة هناك أو شجرة دقوها على الرصيف ليحتمى فى ظلها المشاه .. جعل النساء هذا الميدان أحلى من مسرح مانيكان فى كان .. جعلن الميدان ساحة جميلة وبستان ينعت زهوره وعبقت رياحينه وفجرت صنابير المياه .. هؤلاء النسوة بزيهن المألوف جعلن من الساحة قطعة من أرض خضراء تغنى بثراء الحى .. ان جماله هذا أثر من آثار التاريخ

القديمة .. ربما من ألف عام ..... ولما انبثق قرص الشمس يصدح فى الآفاق .. يتوهج عند التفاف السماء بأحضان الأرض .. كان كثير من الناس يذهبون الى أعمالهم فى زحام وأن الحى القديم يملأ فى جوفه العالم كله .. وتساءل سلامة : أين أنا من هذا العالم ؟.. وماذا أريد ؟.. لماذا كل هذا التأمل فى واقع لا يعرف غير أن يندمج .. واقع لا يعرف الخيال ولا حتى الجمال ؟.. وشرب الشاى ودخل فى حزمة من البشر تدخل مركبة الى قلب العاصمة .. وهبط الى ميدان كبير .. وفيما هو يجوز الساحة الى شارع رئيسى وجد جمهرة من الناس عند مبنى ضخم .. وانحشر وسطهم .. انهم جميعاً من كان وفى لحظات حمل بعضهم رجلا يمسك ورقة فى يده ويزعق بأعلى صوته :

ـ المهندسون الزراعيون فى محافظة مجيرين ..

المنادى عليهم يدخلون الى المبنى مسرعين .. وآخر ينادى على آخرين فى محافظة تلوانه .. ومرت دقائق انسلخ بعدها سلامة من هذا الحشد الا أنه وهو فى طريقه الى شارع عاقته مشادة بين رجلين من كان .. ثم أطلق ساقيه الى آفاق أخرى فى المدينة .. كان سلامة يحب الآفاق البعيدة المطلقة بغير حدود .. يريد أن يأخذ خيطاً للحياة ويجرى به نحو العيش الكريم الفاضل .. كيف يكون كريما اذا كان مشروطا ؟.. وكيف يكون فاضلا اذا نشأت المشادات والشتائم للزحام من

أجله ؟.. ألا توجد بارقة نور عند أى منحنى خالص نظيف ؟..
وبدأت تنشأ فى صدره آلام ، ان كل شباب كان فى هذه المدينة .. ليس من السهولة الحصول على فرصة عمل وسط هذه الحشود .. وتطلع الى الآفاق التى يحبها وكلما رأى جنودا تجنبها ومشى فى الشوارع بغير هدى .. ودخل احدى البنايات الجديدة لوزارة .. فعامله موظف الاستعلامات بالدور الأرضى بكبرياء فشكره وانصرف .. ومر بمبنى آخر فقدم صور أوراقه وانصرف .. وفى كل مرة يرى حشداً يمر به على عجل الا أنه كان يلتقط تلك الوجوه البائسة التى ارتسم عليها الشقاء .. ان الفنادق والمطاعم والمقاهى والأرصفة محشورة بأبناء كان .. انهم يقومون بكل الأعمال الصعبة والدنيا والحقيرة .. وملئه اليأس وتعبت قدماه وارتمى فى أحضان مقهى كبير يمتلىء بالكانيين الباحثين عن عمل .. وقال لنفسه : يبدو أنه غير مؤهل للنجاح هنا !.. لكنه لم يجد بديلا حتى الآن من هذه الأعمال .. فهل تسوق اليه الآفاق الواسعة بديلا .. وجاء الظهر فقام وصلى فى أحد المساجد وانصرف الى مطعم تناول فيه الغداء .. وأخذته ساقاه الى ساحة ميدان كبير كانت كل الأشياء حوله تعوزه .. فهل تخدعه الدنيا فى رحلته .. ورغم قلة النقود معه الا أن صدره ملىء بالأمل ووجهه مشبع بالبشاشة .. كان يشعر بالفقر فى جيوبه لكن شعوره بالغنى والأمل فى داخله

لا ينتهى .. وركب باصاً سرعان ما امتلأ بالركاب غالبيتهم من أولاد كان .. وقعدت بجواره امرأة فى العقد الثالث من عمرها .. وجلس على طرف الكرسى متظاهراً بفسح المكان فشكرته .. فقال :

ـ العفو ..

ولما كانت تلتف بعباءة سوداء دفعته مخيلته الى تأملها بطرف عينيه ، ويبدو أنه قد راق لها ذلك .. فابتسمت وشجعته بتلك الانفراجة المتحفظة على أن يقول :

ـ أنا سعيد برؤية كل امرأة ترتدى هذا الزى الجميل ..

المرأة ـ ياه .. معقول ؟ ونحن النساء هنا نتشوق للابس كان ..

سلامة ـ وما يمنعكم تحت العباءة ترتدون كل ما تريدون ..

المرأة ـ هل أنت من كان ؟..

سلامة ـ نعم .

المرأة ـ لكنك تشبه أهل المدن !

سلامة ـ وهل كان كلها قرى ؟!..

المرأة ـ هل ترى الكانيين فى هذا الباص .. أنت لا تشبه واحداً منهم .

سلامة ـ هؤلاء من الجنوب ومن القرى .. وأنا من قرية ولكن ..

المرأة ــ لماذا أتيت ؟..

سلامة ــ للعمل .

المرأة ــ هل وجدت عملا ؟

سلامة ــ لا ..

المرأة ــ انى أجدك مختلفاً عن أبناء كان .. وربما كانت ظنونى سطحية .. أقصد ألم يجد ما هم فى مثل مظهرك عملا فى بلادهم ؟..

سلامة ــ المرتبات ضعيفة .. لا يستطيع خريج الجامعة أن يقيم بيتاً بعد عامين مثلا من عمله .. لابد له من السفر حتى يحقق ذلك بسرعة ..

المرأة ــ نحن نقدر فيكم هذا الطموح .. وماذا تريد أن تعمل ؟..

سلامة ــ وجدت الأعمال فى مدينتكم بالفنادق والمطاعم.. ويبدو أنى لن أجد نفسى فى هذه الأعمال ..

المرأة ــ ما هى مهنتك ؟

سلامة ــ محاسب .

وصمتت السيدة برهة ثم قالت :

ــ هل تقود السيارات ؟

سلامة ــ لا ..

السيدة ــ والحمير ؟..

وضحك سلامة وقال :

ــ هذه التى أعرفها .

السيدة ــ ماذا يعمل والدك ؟

سلامة ــ فلاح ومصلح ..

السيدة ــ مصلح . يعنى ايه ؟..

سلامة ــ يصلح الناس تطوعا منه فى عمل الخير ..

السيدة ــ هل يتقاضى أجراً ؟..

سلامة ــ لا ..

السيدة ــ وهل تعلمت منه شيئاً ؟..

سلامة ــ لم أتعلم ..

السيدة ــ نحن جميعا لا نتعلم الأعمال الصالحة .

سلامة ــ كان فى قريتى سعة من الرزق ودفعته هذه السعة لعمل الخير والاستقرار فى بلده ..

السيدة ــ وهل ضيق الرزق لا تدفع الانسان لعمل الخير ؟..

سلامة ــ ربما .

السيدة ــ عندنا هنا سعة .. صدقنى هذه السعة تدفع الناس لغير ذلك ..

سلامة ــ انها صورة لم أرها بعد ..

السيدة ــ سوف ترى .. وهل تعرف قيادة الأغنام ؟..

سلامة ــ وهل الأغنام تحتاج الى قيادة ؟

السيدة ــ حول مدينتى قيادة الأغنام مطلوبة .. كثيرون من بلادكم يرعون الأغنام عند الأعراب فى الضواحى .. كانوا

يرعون أغنامهم .. ولما جاءهم الغنى استأجروا الكانيين لهذا العمل .. وأعرف واحداً من الأعراب زوج ابنته لكانى ..

ضحك سلامة وقال :

ـ زوجينى ابنة أعرابى وأرعى غنمه على أن ينقدنى أجرى مقدماً لمدة عام .

السيدة ـ أعرف ماذا ستفعل بعد ذلك .. سوف تنزل المدينة وتسافر على أول طائرة ..

سلامة ـ ولماذا أهرب ؟..

السيدة ـ ربما تفعل ذلك هرباً من زوجتك البدوية ..

سلامة ـ على العموم يا سيدتى أنا أمزح معك .. لم آت للزواج يا سيدتى .. ما اسمك ؟..

السيدة ـ هند .

ـ اسمى سلامة .

السيدة ـ ركبت من ساحة الميدان الشرقى ؟

سلامة ـ نعم .

السيدة ـ هل تعرفها جيداً .

سلامة ـ نعم .

السيدة ـ انتظرنى غداً فى الواحدة ظهراً .. سأحاول مساعدتك ..

وكان ذلك العرض الطيب مفاجأة لسلامة فاعتدل فى جلسته وقال :

ـ يالك من سيدة كريمة .. أشكر لك تفضلك على بهذه الخدمة .. غداً فى الواحدة أنتظرك ..

وكان الباص قد دخل الحى الذى يقطن فيه الكانى وهو نفس الحى الذى تحيا فيه هنـد .. وقالت وهى تقـوم من مقعدها للنزول :

ـ وهو كذلك غداً موعدنا ..

ـ مع السلامة يا سيدتى أنا فى انتظارك ..

نزل ركاب الباص جميعاً فى ساحة الحى .. ولمـا نزلت هنـد . وقصدت منزلها تبعها سلامة من مسافة بعيدة خشـية أن تراه يفعل ذلك فتغضب منه .. كانت البيوت فى هذا الشارع من طابق واحـد شيدت من حجارة لها أبواب حديدية قديمة.. وسعد بهذا التأمل وانقلب الى الميدان ليدخل مطعماً لطهى لحم الرأس .. ولم يكن المحل مزدحماً بزبائنه .. وجلس على طاولة فوجد عليها طبقاً فيه بقايا من اللحم فالتهمه ، ولمـا جاء العامل الكانى يسـأله عن طلبه فضحك معه سلامة وقال مشـيراً الى الطبق الذى أمامه :

ـ مثل الذى كان هنا ..

فقهقه العامل وقال :

ـ كل زبائنى لا يستطيعون الانتظار ..

ولمـا انتهى من طعامه قصـد المقهى الذى يقع فى الميدان وهنالك تأمل الناس وكانت هوايته اليـوم أيضـاً هى متابعة

النساء اللائى يرتدين العباءة .. وكان يسوقه الى ذلك هـذه المرة تعرفه على هند وهى واحدة من هؤلاء النسوة ..

وقبـل المغرب بقليـل دخل الى غرفته حيث تناول كتبه ووضعها على منضـدة بجوار سريره وتمدد بملابسـه ثم قام ليخلعها ويصلى .. وراح فى نومه .. وفى منتصف الليـل تقريباً سمع حديثا يدور على الفراش الملازمين له فى الغرفة :

ـ ستة شـهور أعمـل فى هـذا المطعم حتى أن قدمى لا تستطيعان حملى بعد ..

ويرد عليـه زميله :

ـ ان العمـل فى وزارة الزراعة خدعه .. ويبـدو أنى سـأعود قريباً .

ـ بعت أثاث بيتى ولو عـدت الآن فلن أسـتطيع شراءه يا يسرى .

يسرى ـ يا مصطفى لن نعود الآن .. لنذهب الى تلك المدينة لنعمل فى أحد فنادقها .

مصطفى ـ وهل سنجد فيها حظاً أوفر ؟..

يسرى ـ نجرب .. لن نخسر شـيئاً ..

وانقطع الحديث وداوم سلامة النوم ثانيه حتى الضحى.. وقام ليصلى ثم تناول فطوره فى الفندق .. ونزل الى الشـارع قلماً ولمـا عاد أخـذ يقرأ فى كتب المحاسـبة ودخـل عليـه ليشترى قلماً ولمـا عاد أخذ يقرأ فى كتب المحاسبة ودخل عليه صاحب النزل قائلا فى فظاظة :

ـ ممنوع الكتب يا سيد ..

سلامة ـ وهو يعتدل فى جلسته :

ـ لماذا ؟!

الرجل ـ ستجلب المشاكل لى ولك ..

سلامة ـ هذه الكتب مملوءة بالنظريات المحاسبية المملة.. ليس بها شيء .

الرجل ـ أنت تضعها على الطاولة كأنها فى مظاهرة .. أخفيها ويكفى الكتاب الذى فى يدك .. واقترب الرجل منه وأردف يقول وكأنه يهمس :

ـ فى عرضك انهم يجوبون النزل عشر مرات فى اليوم نحن فى غنى عن ذلك .

وهز سلامة رأسه علامة على أنه فهم وأنه موافق وقال :

ـ آسف يا سيدى .. فهمت .. معذرة لك وللجميع .. لم أكن أعرف .. لم أكن أعرف وفى لحظات أخفى سلامة كتبه وربت الرجل على ظهره وخرج ..

بدأ انطباع صارم يأخذ مساراً نحو رأسه وفكر فى ترك النزل .. ولكن الى أين ؟.. كل الفنادق بالتأكيد ينطبق عليها هذه الأمور .. وكان هاتفاً داخليا مكبوتا فى أعماقه يقول له : اقتلع من تلك الحياة الخادعة الفرصة بأى شكل .. فهذه هند ابنة القبيلة .. ماذا تخبىء وراءها من فرص الحياة ؟.. لو أدى الأمر أن يتزوجها سيفعل .. هذه المرأة المجهولة عندها فرصة الحياة له حتى لا يسقط تحت أقدام المدينة .. وكان السقوط

فى نظـره أن يعمل عاملا فى مطعـم أو فنـدق أو مقهى .. ولمـا أعلنت دقات السـاعة الثانية عشرة ظهراً كان ينزل من المركبة العامة وسط المدينة .. ومضى الى حيث لا يدرى يحذوه الاصرار على انتهاز أى فرصـة للعمل حتى ولو عمل حماراً .. وتغيرت الفكرة لديه بأن السقوط الحقيقى أن يكون بدون عمل وليس معه فلسـاً واحداً ومن ثم يتسـول فى المدينة .. ان السـقوط الحقيقى هو الحاجة والتسول خاصة أنه ليس مؤهلا لذلك التـدنى .. وكانت الشـوارع تمتلىء بضـجيج يؤذى السمع ويؤلم النفس .. وأولاد كان هم مصدر الجلبة الرئيسى فى أى شـارع أو ميدان ولم يكن يسـتطيع وهو يسـير فى شوارع تكتظ بالمركبات والناس أن يتطلع الى السماء .. فى ميسورة فقط أن يطرق الى الأرض .. ورأى وهو ينزل من شارع الى آخر أن كثيراً من الناس فى أسمالهم البالية وأحذيتهم الممزقة وأصواتهم المؤذية هى أقصر طريق لجمع المـال .. فهذا صف ماسحى الأحذية .. ينادون على المـارة يخطفون أحذيتهم من أقدامهم حتى قنادر النساء جلبوها .. ويزداد هذا المنحنى اتسـاعاً عندما يسمع :

ـ ورنيش .
ـ لميـع .
ـ أحمر .
ـ أصـفر .
ـ اسـود ومنيل .

ـ غسيل ومكوى .

ـ بيلعب ..

يضحك النساء .. تقع عباءاتهن .. تتعرى سيقانهن .. يعلو صوت ماسحى الأحذية .. يسقط المطر .. يدخل الناس جميعاً تحت مظلات الحوانيت وخلف جدران الأنفاق .. وتخلع النساء أحذيتهن حتى ينتهى المطر .. وتسكت الأصوات لحظة فيها قد يتوقف السيل فتشتد كعوب النساء لترتدى الأحذية اللامعة وتجرى امرأة تعقبها أخرى فيدخلون فى المركبات العامة والخاصة وبعضهم يفضل من يفتح باب حانوته .. وتهب الرياح من كل جانب تكنس الشوارع وتحمل مياه الأمطار الى فوق فتتلاعب كالموج . ويصرخ الناس جميعاً يلوذون بالفرار .. يهربون الى بيوتهم الآمنة الا أولاد « كان » فهذا موقف بطولى .. انهم يسعدون جداً حين يميل عليهم أهل البلدة بقولهم :

ـ أبطال .. والله أبطال ..

ولم يكن لأولاد كان خيار .. الى أين يهربون .. انهم يلوذون بعرباتهم .. ويحضنون صناديقهم ويحفرون بفؤوسهم .. ويغنون أغانيهم المشهورة سالمة يا سلامة ..

يامه القمر على الباب .

للصبر حدود .

خى خى حبيب قلبى ليه يا خى ..

كان البرد والقلق والخوف من كل ساعة تمر .. وتصارعت الأفكار في رأسه وغمه أن يرى هذا الشقاء في حال كل كائن يلقاه .. وسحب نفسه من هذا الألم بصعوبة وأسرع نحو ساحة الميدان ليلتقي بهند .. جاءته واعتذرت على أن تلقاه بعد ساعتين في نفس المكان !.. ومشى حزينا حتى كوبرى ساحة الكرامة حيث مر بكثير من البيوت القديمة الخربة وكلما وقعت عيناه على امرأة عجوز أو بيت خرب أو طفل مشرد من أهل المدينة الفقراء وضع أصابعه على وجهه لشعوره بأن شيئاً من الخراب أصابه ويقول بصوت مبحوح : وهل يأت من هذا الفقر البشع ما يملأ جيوبى ؟.. كيف ؟.. هل أشبع وسط هؤلاء الجوعى ؟.. ان مدينة عامرة بالمتسكعين والشحاذين .. سماسرة .. متسببين .. دلالين .. تجار عملة .. رسامين صور عارية .. قوادين .. بائعى كتب قديمة .. مياه مجارى قذرة تعوم في الشوارع .. جدير بهؤلاء أن يرحلوا ويتركوا المدينة لأهلها .. انهم أقدر عليها .. لكن أصحاب المدينة يقولون ان هؤلاء الغجر جعلوا لتلك المدينة صوتا .. ان أعمالا كانت مفقودة قبل مجيئهم فأحيوها .. ان مدينة لا يعرف أهلها كيف يخبزون رغيف العيش في حاجة الى هؤلاء الغجر .. انهم بعيدون عن شوارعنا وبيوتنا .. ان الشوارع الخربة تحتوى ضجتهم .. والفنادق القذرة تجمع عبثهم ..

وقضى نحو الساعة يهيم على وجهه . ثم انطوى عائدا الى

موعده مع هند .. رجع من شارع آخر .. كانت فيه البيوت بالغة القدم ذات نوافذ خشبية عريضة وأبواب من حديد لها مزاليج صدأة من الداخل .. ولم يترك باباً مفتوحا لمعمل أو مصنع أو مقهى الا وبحث فيه عن عمل .. لقد قرر أن يعمل فى أى شىء حتى لا يستجدى الطعام .. ووقف عند أحد الأعمدة الخرسانية التى تتوسط رصيف محطة السباحة .. ولم ينتظر طويلا .. وحفت به عباءة هند من الخلف وتقدمت أمامه قائلة :

ـ تعال يا رجل .

وخفق قلبه وتبعها .. وصعدا الى الطابق العلوى وقعد فى المقعد الخلفى .. وكانت العربة شبه خالية فالتصق الجسدان وبادرها سلامة :

ـ الى أين ؟..

ـ الى ضاحية بعيدة عن المدينة القديمة .. لتعرف البلد الذى تعيش فيه .

سلامة ـ أريد أن أعمل أولا ..

هند ـ ألا تريد أن تعرفنى ؟..

سلامة ـ عرفتك .. أنت أحلى نساء المدينة .

هند ـ أنت تكذب ..

سلامة ـ صدقينى ..

هند ـ أنت مجامل .. لأنك لا تعرف عنى غير اسمى .. أنا .. أنا امرأة متزوجة .. كنت متزوجة ..

سلامة ــ وأين زوجك ؟..
هند ــ تم الطلاق بيننا منذ سنين .
سلامة ــ هل عندك أطفال ؟
هند ــ طفلة فى التعليم الابتدائى .

وأخذهما الباص الى المحطة الأخيرة ، فنزلا وركبا مركبة أخرى عائدة الى المدينة وأخبرته هند بأنها فعلت ذلك لزيادة التعارف بينهما .. وأن المواصلات هى الوسيله الوحيدة التى تقدر عليها للتعرف على رجل غريب .. وأخبرها سلامة بأنه لا يريد أن يضيع وقتاً .. لقد قاربت نقوده على النفاد وأن عليه أن يعمل بأقصى سرعة .. وطمأنته على ذلك وأكدت عليه أنها لن تتخلى عنه أبداً .. ثم ركبا باصاً ثالثا الى الحى الذى يعيشان فيه .. وقبل أن يصلا المحطة الأخيرة بقليل فتحت هند حقيبتها وأخرجت لفة نقود ورقية ووضعتها فى جيب قميصه قائلة :

ــ هذه سلفة سترديها لى بعد أن تلتحق بالعمل .
وتواعدا فى الغد على اللقاء فى نفس الوقت والمكان ..

ونزل سلامة الكانى سعيدا لتمسك هند به وتعهدها بأنها ستقدم له كل المساعدة .. ومن فرط سعادته كان يريد أن يذهب الى المدينة ثانية يجوب كل شوارعها يحدوه الأمل فى الحياة .. الا أنه تمشى فى جوانب الحى وعد لفة النقود فوجدها سبعين ديناراً ودخل مطعماً والتهم نصف دجاجة وطبق

رز وهى أكبر وجبة تناولها منذ مجيئه .. بعدها رجع الى الفندق لينام يوماً هنيئا وقام فى السابعة مساءا .. وكان فى زاويه من زوايا الغرفة مشجبة عمودية فعلق عليها بعض ملابسه .. ولم يكن بالغرفة أحد غيره .. فتح النافذة فأضاء مصباح الشارع غرفته المظلمة .. ودق صوت قدم عند الباب لكنه سرعان ما تلاشى .. وجال ببصره نحو الباب وكان يخاف أن يفتحه أحد .. يريد أن يبقى وحده فى هذه الغرفة رضوئها الباهت وقام وصلى على السجادة وأخذه النوم .. وفى منتصف الليل تقلب فى فراشه وسمع صوتا يبهو الفندق مخاطبا صاحبه :

ـ عشره أيام تقريبا ..
صاحب المنزل ـ الليله دينار ..
ـ مش مشكلة ..
صاحب النزل ـ الغرفة مفتوحة بها نزيل .. هذه ..

وفتح باب الحجرة .. ودخل رجل متوسط الطول يحمل حقيبة أوراق فى يده .. كانت الرأس تحمل شعراً كثيفاً قصيراً .. له عينان جاحظتان منتفختان .. واقترب الرجل منه وتفحصه وبدا عليه الاندهاش من رجل ينام على السجادة بالأرض .. وبدأ فى خلع ملابسه دون أن يرفع عينيه عن سلامة .. ولم يضىء نور الغرفة معتمداً على الضوء المنبعث من الشارع

.. وتقلب سلامة يمينه ويساره ثم قام وقعد .. فى حين كان الرجل القادم قد لبس جلبابه ودخل تحت الغطاء .. وعمل كأنه نائم .. ورنا سلامة نحوه فشعر بالخوف ومضى الى فراشه لينام على جنبه دون أن تغمض له عين .. ومضى الوقت .. قليل من الوقت ثم قام الرجل وأضاء نور الغرفة وقفل النافذة لشعوره بالبرد .. وانعدل سلامة نحوه وفرك فى عينيه وقعد فبادره الرجل :

ـ مساء الخير ..

سلامه ـ أهلا وسهلا .. مساء الخير ..

وظهر الرجل جليا أمامه .. شاب لا يتجاوز الثانية والثلاثين عاما .. وجهه يميل الى السمرة ملامحه جادة حزينة .. عيناه منتفختان كالذى مضى عليه وقت يبكى .. قلب الرجل فى بعض الاوراق وكتب فى احداها ثم رتبها ليضعها فى ملف بالحقيبة .. وجذب الطاولة الى سريره وأخرج سجائره وأشعل واحدة منها ومد يده نحو سلامه بسيجارة قائلا :

ـ سيجارة ؟

سلامه ـ لا أدخن ..

الرجل ـ منذ متى أقلعت عن السجائر ؟

سلامه ـ طيلة حياتى لم أدخن ..

الرجل ـ غريب ! .. لماذا ؟! ..

سلامه ــ لأنى أكلت كثيرا من الفتة وأنا طفل ..
الرجل ــ ما اسمك ؟
ــ سـلامه .
الرجل ــ شاكر حسون من الجنوب .. وأنت ؟ ..
سلامه ــ من كان .
الرجل ــ بالطبع أتيت للعمـل .
سلامه ــ نعم ..
شاكر ــ ما عملك ؟ ...
سلامه ــ محاسب .
أخرج شاكر ورقة كانت فى جيبه وأمسك قلمه قائلا
ــ اعطنى بياناتك ..

سلامة ــ سلامة محمد الهلالى أبو عافية و .. و .. و ..
ووضع شاكر الورقة فى جيبه وأخبره بأن له صديقا فى وزارة .. سوف يمر عليه فى الغد لمحاولة تعيينيه ...

وتململ سلامة فى جلسته فرحا وقال :
ــ تكون بهذا قد أسديت الى خدمة لن أنساها أبدا ..

وقال شاكر وهو يشعل سيجارة ثانية :
ــ لقـد فعلت للكثيرين من بلادكم ولى علاقات بهـم وأزورهم فى أعمالهم حتى الآن ..
سلامة ــ وما هو عملك ياسيد شاكر ؟

شاكر ــ مهندس زراعى .. وأنا دائم القدوم الى العاصمة فى مأموريات عمل .. عملى فى مديرية الرجف ..

وساد الصمت بينهما قليلا .. وتفحص شاكر سلامة بعينيه الجاحظتين وبادره قائلا :

ــ قرأت قصة بعنوان دم لفطير صهيون .. أحد شخصياتها رجل دين يدعى أبو العافية .. وكانت أحداث القصة تدور فى دمشق ..

سلامة ــ يبدو أنك واسع الاطلاع .. ليس لنا علاقة فى كان بأى عائلة من دمشق وأعتقد أن الأسماء متشابهة ..

شاكر ــ لا يهم .. لا يهم ..

وقام حسون الى بهو النزل ونادى أحد الكانيين العاملين به .. وأعطاه نقودا لشراء طعام .. ولما دخل فى فراشه كان يحيى سلامة من وقت لآخر .. هلا بيك .. نحن بلد واحد .. وكلنا أقارب .. توفق باذن الله .. هلا .. هلا .. ولما دخل الرجل بالطعام أعده على الطاولة وقال شاكر :

ــ تعال أيها الضيف العزيز .. تعال نأكل معاً ..

فشكره سلامة وأخبره أنه تناول وجبة دسمة ولا يستطيع .. الا أن شاكر أصر على أن يشاركه طعامه .. وتناولا وجبة شهية من الكباب والسلاطة والخبز الطرى .. بعدها تناولا الشاى وقعد كل منهما فى سريره وفى غمرة الحديث سأل

شاكر سلامة قائلا :

ـ ما هو اتجاهك ؟

سلامة ـ اتجاهى فى الصلاة ؟ ..

ضحك شاكر :

ـ فى غير الصلاة ..

سلامة ـ وأنا نائم ؟ ..

وابتسم شاكر كرة ثانية :

سلامة ـ حينما كنت أنام على الفرن على جنبى الأيمن يكون اتجاه وجهى ناحية بيت خالتى عائشة البكلية .

قهقه شاكر وضرب الفراش بيده وقال :

ـ وعندما تكون على جنبك الأيسر ؟

سلامة ـ يكون اتجاهى ناحية عمى سليمان حنظل .

شاكر ـ انتهيت .. هل أمسى ذلك ذكريات من القرية أو..

سلامة ـ انها قفشات من واحد فى قريتنا يحفظ منها الكثير .. يدعى .. يدعى . عبد السميع تهامى ..

شاكر ـ بالله عليك لا تعرف معنى الاتجاه ؟ .

سلامة وهو يتجه نحو زرار الكهرباء :

ـ هل تسمح لى باطفاء النور .. وأطفأه .

شاكر ـ هل تحب الظلام ؟

سلامة ـ أحب الشاعرية .. يكفى هذا الضياء الخافت..

شاكر ـ الآن عرفت اتجاهك ..

سلامة ــ اتجاهى الحقيقى عبد الرؤوف ..

شاكر ــ ماذا يعنى

سلامة ــ يعنى اتجاهى قطرى ..

شاكر ــ من يقود البلاد يكون اتجاهى هو اتجاهه ..

سلامة ــ من الذى يطعمنى ويسقينى ..

شاكر ــ قائد البــلاد .. هو الذى .. وهو الذى .. كنا وأصبحنا .. و ..

سلامة ــ الله هو الذى يطعم ويسقى ويستر جميع من فى هــذا العالم ..

شاكر ــ ألم تكن فى يوم من الأيام ناصرى ؟

سلامة ــ لا .

شاكر ــ نحن هنا فى غير بلادكم كنا ناصريين ..

وقال سلامة فى سره :

ــ كل التافهين والفاشلين فعلوا ذلك وكان ذلك اتجاههم لأنهم فى الأصل لا يعرفون الله ..

لكنه بعد صمته هــذا كظم ثورته فى داخله وقال :

ــ أنا يا عزيزى لم يكن لى هــذا الاتجاه .. من يعرف الله لا يتبع أحداً .... وحاول سلامة أن يمسك جماح نفسه .. وأن يجعــل الله فى داخله لأنهم لا يعرفون هــذه المعانى النبيــلة ..

شاكر : ان ناصر هو الذى دعا الى القومية العربية وهو الذى أقام أول وحدة عربية .

سلامة ــ كان عليه أن يوحد صفوف شعبه أولا .. على كل رئيس دولة أن يتوحد مع شعبه أولا .. فكيف يقيم الواحد منهم وحدة مع غيره وهو منفصل عن جذوره الحقيقية .. وسرعان ما تمالك سلامه زمام نفسه وبدأ يكذب لشاكر قائلا :

ــ بلادكم الآن قائدة .. توحد الزعيم عباس مع شعبه أولا .. ثم بدأ يدعوا للقومية العربية و .. انه بحق الزعيم الحق .. والأوحد .. لقد أتيت بلادكم لكى أرى هذه الحقيقة عن قرب .. أنى أحب هذا الزعيم ..

ان سلامة يريد أن يحقق هدفه دون أن يخسر شيئا .. وعليه أن يدفع بالشكل والمظهر الذى يريده هذا الرجل والمضمون الايمانى والفكرى يحتفظ به فى داخله ويعرفه الله العظيم ..

وانفرجت أسارير شاكر ويبدو أنه شرب غناء سلامة ولما شعر سلامة بذلك أردف يقول :

ــ على العموم أنا رجل عادى كما ترى رأس كبير مثل فحل الجاموس ولم يكن لى أى نشاط فى الجامعة أو أيام كنت بالثانوى ..

ورد عليه شاكر محاولا أن يثنيه عن التنكيل بنفسه :

ـ لماذا يا أخى .. يا أخ العرب .. لماذا تشتم نفسك وتشبهها بالحيوان ؟ ..

سلامة فى هدوء :

ـ الحيوان فى عالمنا لديه من الخصال الطيبة ما تفوق صفات الانسان التى اكتسبها فى هذا العصر .

شاكر ـ أنا أعرف أن الحيوان حيوان .. وأن الانسان انسان ..

وكان سلامة يريد أن يقول له .. توقف عند هذه المعانى ولا فائدة أن تعرفوا أكثر من ذلك ..

وصمت سلامة لكن شاكر قاطع صمته بقوله :

ـ أنتم تطلبون منا العمل من أجل المال .. مرحباً بكم .. ونحن نطلب منكم الانتماء والاتجاه ... ان لنا قوالب يجب أن يصب فيها المواطن الحر ..

سلامة ـ أنتم لم تقدموا لنا شيئا حتى الآن .. نحن مستعدون يا أخى أن ننتمى ونتجه .. لكن أسرعوا ..

وهز شاكر رأسه قائلا :

ـ نعم .. سنقدم هذا دورنا أولا ..

سلامة ـ هل ستفعل شيئا فى الغد من أجلى ..

شاكر ــ طالما كان اتجاهك سليماً ،وأفصحت عنه صراحة بأن بلادنا الآن قدوة .. سأفعل لك الكثير ..

ونام سلامة وهو خائف حتى من ضياء النافذة الخافت .. وفي الصباح وجد كتابا صغيرا عند رأسه وضعه له شاكر .. وبعد أن قام وصلى قرأ الكتاب في ساعتين .. بعدها عرف كيف يتجه .. ولما عاد شاكر في العصر سافر فجأة الى الجنوب .. وترك لسلامة ورقة تفيد بأنه سيعود بعد أسبوع . ولم تأت هند في موعدها بعد ظهر هذا اليوم .. ومر سلامة على بيتها فوجده مقفلا .. وكان يوما شعر فيه بالكآبة ونام في غرفته حتى بعد الغروب .. وبعد صلاته نام على سجادته طويلا ولم يكن معه نزلاء جدد .. وفجأة أفاق مخبلا وصاح هاتف في داخله : أليس لي في العودة أمان ؟ وهل يصح أن يكون أمانا أجوفا .. وقال لنفسه وكأنه يرد على هاتفه :: وهل أستطيع في بلد غريب تحقيق أي أمان ؟ . وانتقل الى سريره ولما طلع الصباح كان عليه أن ينتصر على كل أصوات الخوف من حوله .. ونزل الى الشارع مبكرا قاصدا قلب المدينة ..

ومشى بعصبية وقد كان ذلك المتجول صاحب القامة الطويلة والخطوة الواسعة رقيق القلب يتخبط في سيره يهيم بحثا عن أي جديد .. ان سلامة بعيد عن الواقع ومنعزل عن الناس فكيف يعثر على جديد ؟ . هل يجد جديدا في الهواء ؟ .. ما هذا الذي يعتمل في نفسه ؟ لقد سلخ سلامة ثلاثة عقود

من عمره فى عزلة وحساسية من العالم حوله .. لدرجة أن هذا العالم جرده من واقعه ومن حقيبة نقود تسد أوده .. وهذه نقود امرأة يأكل بها ..

وكان والد هند قد عاد من الجنوب فلبثت ابنته فى البيت تطهو الطعام وتنظف البيت مع أمها .. ولم يكن والدها يرغب فى أن تعمل وتعودت حين قدومه ارضاءه بأن تبقى فى البيت أياما حتى تتلافى أية معارضة له وتحوز على رضاه ..

ولم تأت هند فى اليوم التالى . فدخل سلامة احدى دور السينما فى شارع الميسون وكان أمامه شاب فى مقتبل العمر وفتاة يتعانقان فى حرارة ووجده لذة فى متابعتهما وضربته يد رقيقة من الخلف ولما التفت قالت له :

ـ ألا تريد صديقه بعد الفيلم ؟

سلامة ـ أريد .

المرأة ـ هل تعجبك أعمال المراهقة .

سلامة ـ أتابع الأعمال دون أن أدرى ..

المرأة ـ هذه السينما معروفة بإيواء طلبة الجامعة والثانوى .. مقابل دراهم للكشاف ..

سلامة ـ ولماذا لا تفعلين مثلهم ؟

المرأة ـ لى بيت قريب من هنا تذهب معى اليه وتعطينى خمسة دنانير ..

سلامة ــ هل تسمحين لى دقائق الى دورة المياه ..
المرأة ــ فى انتظارك ..

وفر سلامة الى الطابق الأرضى ومنه الى الشارع .. وكان الجد أغلب عليه من أى شىء آخر .. وكانت هناك احدى النساء الشحاذات والتى تضع على وجهها خمارا تجلس على باب السينما فوضع فى حجرها قطعة نقود وجرى نحو أى باص يحمله من لحظة ضعف قد تعتريه ويعود الى المرأة التى تنتظره .. وانتقل الى باص آخر ليصل الى الحى الذى يعيش فيه .. ولما دخل غرفته لم يكن قد افتات بلغه من خبز .. وارتمى على فراشه بملابسه وظل بعض الوقت مهموما بحاله الذى توقف .. ولكنه ما لبث أن قام وصلى ثم خرج الى الشارع ليضع شيئا فى بطنه .. ثم شرع يجوب شوارع الحى البعيدة مفوضا امره الى الله .. ورغم أن كثيراً من المارة قابلوه فى الاماكن التى اجتازها فلم يتصفح وجه واحد منهم .. كان محزوناً من كل شىء حوله وعاد الى نزله وصدره يمتلىء بالقنوط .. وفى اليوم التالى آوته الشوارع والميادين قرابة ثلاث ساعات ثم ذهب لانتظار هند .. ولما جاءته أخذته وركبا باصا وجلس الى جانبها صامتا

واعتذرت له وكان سلامة صامتا طول الوقت حتى انه لم يسألها الى أين تأخذه فبادرته قائله :

ـ هل تعرف أين نذهب ؟ ..

أجاب سلامة ببرود :

ـ المهم أن يكون ذهابنا بفائدة ..

هند ـ اطمئن هذا أول الجد .

سلامة ـ وهل توجد أى ادارة حكومية تفتح أبوابها بعد الثانية ظهرا ..

هند ـ أنت وديع لا تنفع فى هذه الدوائر .. وهناك سيلاحقونك .. نحن ذاهبون الى ادارة تملكها امرأة .

سلامة ـ وهل تملك النساء ادارات ؟

هند ـ كثير من البيوت والمحلات و ..

سلامة ـ على الله يا هند ..

هند ـ انها السيدة ريما .. صديقتى منذ أن كنا أطفالا .. هاتفتها بشأنك .. المهم تريد أن تراك اليوم وتطمئن اليك..

سلامة ـ مع من تعيش .

هند ـ مع زوجها

سلامة ـ وكيف ؟ .. هل يعلم زوجها بالامر ؟ ..

هند ـ زوجها مسافر للعلاج بأوربا ..

سلامة ـ هذا كثير من أجلى .

هند ـ بعد أن تستقر فى عملك سوف أحد حقى منك..

سلامة ــ كم دينار ؟

هند ــ أريدك زوجا .. قالتها وهى الى الجد أقرب من المزاح ..

سلامة ــ ان عشيرتك لن توافق على هذا الموضوع .

هند ــ انهم يوافقون على أى شىء .. .. وكانت تريد أن تكمل .. أى شىء .. لكن العربة وصلت محطة ريما .. فغادراها ..

ودخلا الى الحى الهادىء .. أرقى أحياء المدينة .. بيوت جميلة وقصور تم بناؤها حديثا .. شوارع واسعة على جانبيها أشجار كثيفة الظل .. وأمام كل بيت برميل او صندوق خشبى للنفاية .. وكثير من أصحابها أقاموا صنبورا للماء البارد ملاصقا للسور الحديدى الشرقى من المدارة .. وفيما سلامه يتعجب كانت هند تبتسم ثم أمسكت بيده واحتضنته بصدرها من الخلف فحركها سلامة تفعل لقد بدا عليه الرضا والحبور .. مما جعل هند تمسكه من وسطه وساعدها على ذلك خلو الشارع من المارة وكان صدرها يلتصق بذراع سلامة فى حرارة وكلما برزا من شارع الى آخر كانت هند تزداد التصاقا به وتأوهت وتدللت وقالت له :

ــ ليتنى أملك بيتا فى هذه المدينة ..

سلامة وهو يسالك نفسه :

وماذا كنت تفعلين ؟

هند ــ سآخذك ودلك الهوى الى بيتى .. انى أحبك .. أحبك .

ولم يجد سلامه فى قولها أمرا غريبا انه كان يريد أن يقول لها نفس الكلمات وأكثر .. وزاده شوقا أن تقول ذلك مرة ثانية وثالثة انه لم يسمعها أبدا .. لقد شعر سلامة بمباهج جديدة عليه .. شاء له أن يدخل الى معالمها .. بينما غاصت هند فى احتضانه وفى .. ونسى هو الى أين يذهب .. تمنى لو يأخذها الى أى مكان .. لقد عظمت الشهوة حتى رأسه وانقضى كل شىء فى بيت ريما حيث وصلاه فلم يجدا السيدة وفتحت لهما السيدة ندا خادمة القصر الصغير وتركتهما فى غرفة الاستقبال وبناءا على أوامر من هند .. ذهبت ندا الى غرفتها ونامت ..

لقد خلعت هند ملابس سلامة واحدة بعد الأخرى .. كان باب الغرفة قد أقفل تماما من الداخل وأحكمت النوافذ .. خلعت هند ملابسها دون أن تبالى بشىء حتى من صاحبة البيت .. كان هناك ما هو أقوى فى جسدها .. وكانت ثيابها الداخلية الحريرية ورعشتها وسرختها .. وشوقها وجسدها وشعرها ووجهها وعيناها دنيا ليس بعدها دنيا يراها سلامة لأول مرة ويغرق فيها وتمنى سلامة لو يظل طول ليلته هنا فى تلك الغرفة .. كانت هند تبكى وتسكر من اللقاء .. قالت ما لم تقله امرأة هذا اليوم فى المدينة كلها .. وتعلم سلامة ما لم يتعلم

و تكتشف آفاقا جديدة لم يكن يعرفها من قبل .. لقد ندم على كل الأيام التي مضت لأنه لم يكن يعرف تلك المرأة وتعجب هو هذه الدنيا العجيبة وطفلة الخيام .. هل كل فتاة من العشائر لها تلك الامكانيات الفذة .. أم أن هذه هي دنيا كل امرأة .. وسحبته عليها تضرب من شبابه .. تدخل اليه دنيا وجسدها البض تلتف ذراعيها حول رقبته تتقلب كالموج تدلع في حرارة وشوق ودنيا .. غرق سلامة وغرقت هند .. هذه بهبة الحب ودنيا العشق بغير حدود .. هذه هي آفاق الحقيقية .. وشعر سلامة بأنه رجل عبيط لقد اكتشف لكنز متأخراً .. ان اللقاء بهند هو حمى السعادة التي ما بعدها سعادة .. كان وجهه يعتصرها .. قبلات كأنها حبل يلتف شفتيها أما قبلاتها فكانت صرعى .. تموت فيه وترتمي عليه .. كانت كأنها ستموت الليلة فتشرب من كوب لا ينضب شرابه قبل أن تحرمه منه .. كانت شفتاها كأنها امرأة ترقد فوق فيها .. وسقط الليل وزاد الفجور فتداعبه أكثر وتراوغه في شوق أنثى عنفا ولما كانت تتلاشى أنفاسه تقترب منه أكثر وتعضه من صدره ويزداد جنونه .. ولم ينقطع اللقاء .. فمن لقاء الى لقاء .. كان النهر يجري والمركب تدخل في أغواره كان العناق لا ينقطع واللهيب ينفجر ويزداد لهبا كان الجسد يخور .. جسدها يخور وجسده يحترق .. كان العنف واللذة وطول الحرمان .. كان البيت يكاد يقع من شدة اللقاء وقوة اللهب .. كانت تجن به وأدركت أن ذلك هو حبها الكبير الذي كانت

تحلم به .. ولم تكن تستطيع أن تتصور أن يصبح هـذا الحلم حقيقة وهكذا أصرت ألا ينتهى اللقـاء .. ولم يكن سـلامة يجهـل تلك الأحلام .. كان يحلم كأى رجل أحلاما متقطعـة يقطعها التفكير فى لقمة العيش والحصول على المـال .. لكن دنيا المرأة دخلت اليه قبل أن يدخل فى أى عمل .. فهل تكون غربة سـلامة امرأة .. لقد استسلمت له .. بل سلمته نفسها بحب وشوق وهو الآخر سلمها نفسه .. وانقطع .. اللقـاء الذى دام حتى السابعة مساءا .. وارتدى كل منهما ملابسـه ودخلت الحمام تغتسل وطلعت فى كامل ملابسها ودخل دون أن يعتريه خوف .. وجلس كل منهما بعيدا عن الآخر فى أدب متظاهرا بالاحترام وكل منهما لا يصدق ما حدث .. وكان سلامة فى نظر هند رجلا بارعا أما هى فكانت امرأة ولا كل النساء .. وقال لنفسه : أملك امرأة أملك كل المدينة .. وقالت هند أملك رجلا مثل سلامة أملك كل الحياة ..

واجتازت المدخل الصغير تهرول خلفها ندا حتى باب البيت الداخلى وقد أخبرتها الخادمة بقـدوم هند ورجل فبانت علم وجههـا سيماء من الخجل لكنـه سرعان ما حل مكانه السرور الخالص .. وتقدمت تجوز الصالة الى الغرفة التى يجلس فيها الضيوف .. وتقدمتها كلمات :

ـ هلا .. هلا هند .. هلا بالضيف هلا ..

ودخلت سيدة حلوة الطلعة مشوقة القوام باسـمة الثغر منسدلة الشعر يخيم على كتفيها فى أبهـة .. عود امرأة كأنه

... بان ... كانت ... الكحيلان الجريئتان فى حذر قمرا ... ... الليل ويمسح عن الوجوه حرارة الشمس .. قدها ... ... المخروط المائوف وشعرها المنثور كأنه مخمور وأى ... ... يعلن صدرها المكنوز .. كان السحر ينتظر من بسمه ... زهرة من ... وأسنانها البيضاء مثل عاج مطعم من نور ... المرصوص .. ... ساقاها جورب حريرى شفاف داخل ... ... لامع .. مشت فى رشاقة وكأنها تطير مثل ... فى حديقة غناء بلامس ورق الشجر فى خفة ورقة ودلال..

وكان ... ما فى المرآة حين وضعت ساقا على الأخرى .. كان الجمال كله ملتفا على ساقيها فى هـذا الجورب الحريرى كانت المدينة كلها مضاءة بنور لا تحتمله العين .. كان البيت كله يغرق فى لذة وسحر لا نهائى كانت المرأتان والغربة والمدينة الحالمة .. كان سلامة يشعر بأنه أصبح سيدا ..

وقال بصوت يسر فى داخله .. صوت بالغ الصدى :

ـ ألا يكون فى اتجاهى الى النساء الجميلات اتجاها ... ساكر حسون ..

ومرت دقائق فى الترحيب والتعارف .. بعـدها دخلت المرأتان الى المطبخ تعدان الطعام حيث دار بينهما حديثا طويلا :

ريما ـ من أين أتيت به ؟

هند ـ من المدينـة .

ريما ـ وهل فى المدينة نماذج شبيهه ؟

هند ـ هذه الحبة قليل منها فى المدينـة .

ريما وهى تتمايل الى الخلف برفقتها مبتسمة :

ـ هل تدركين ما أعانيه ؟

هند ـ تريدين رجلا ؟

ريما ـ رجلا أتزوجه فيما بعد .

هند ـ هـذا الرجل من أجلى أنا .. ولما ينقضى أجل رجلك سوف أقضى لك هـذا ..

ريما ـ أنا أعزر معك .. وماذا تريدين منى ؟ ..

ـ هند ـ مساعدته .

ريما ـ أراه شابا لا يستطيع ادارة محل .. يعنى هـذا رجل نظيف انى أتخيله رجلا ينقلد منصبا رفيعا ..

هند ـ هو يعمل محاسبا لكنه جاء من أجل المـال وهو مستعد لادارة محل .. نجربه ..

ريما ـ لا مانع .. ورنت اليها فى خبث وأردفت :

ـ هل تحبين هـذا .. ما اسمه ؟ ..

هند ـ سـلامة .

ريما ـ هل تحبين سـلامة ؟

هند ـ أعشقه .. قلتها لك بصراحه ..

ريما ـ من أسـبوع ياهند ؟ ..

هند ـ من هـذا اليوم ..

ريما ـ ولماذا من اليوم ؟ ..

هند ـ من اليوم .. من اليوم .. هذا هو .. هذا هو..

ريما ــ كلامك مبهم غير مفهوم ..

هند ــ فيما بعد .. فيما بعد ..

وحملت هند صاوله الطعام وذهبت بها حيث يجلس سلامة وتبعتها ريما تحمل بعض الأطباق . ولما انتهوا من طعامهم جلست المرأتان على الأرض بعدان الشاى .. واتجهت ريما بحديثها الى سلامة :

ــ لقد رأيت كثيرا من أبناء كان فى المدينة ولم أختلط بواحد منهم أو أحادثه .. يبدو أنك نوعية طيبة منهم .. زوجى يملك عددا من المحلات فضل قفلها قبل سفره للعلاج .. لكن هو لا يمانع فى فتحها اذا كانت فى أيد أمينه ..

هند ــ ان ناحية الأمانة اطمئنى .

سلامة ــ جربى فتح أحدها .. وسوف أكون عند حسن ظنك وظن زوجك ..

ريما ــ التجربة لن تفقدنى شيئا ..

وتحدثوا بعد ذلك أحاديث متفرقة كان فيها سلامة يستمع أكثر مما يتكلم .. وكان الوقت يقترب من الثامنة والنصف وعلى هند وسلامة أن يغادرا البيت حتى لا تقلق أم هند .. ودخلتا السيدتان الى غرفة النوم .. وحملت ريما صندوقا صغيرا من الخشب ووضعته على الأرض لتقلب فى كتلة مفاتيح تبحث عن واحد منها وتسلمه لهند قائلة :

ــ هذا مفتاح المحل الكائن بميدان البغلبط .. هل

تعرفينه ؟ .. فى نفس الميدان بجانب محل البويات .. مكتوب عليه نادى العلاوى ..

وهزت هند رأسها دلالة على معرفة الميدان والمحل .

ثم ذهبتا الى الرجل حيث ناولته ريما ورقة بهـا تليفون بيتها حتى يحادثها فى أى وقت بخصوص المحـل .. وأخذها منها ممتنا وشاكرا .. وأبلغته بأن هند ستعطيه مبلغا من المـال لتجهيز المحل بالنشاط الذى ينوى القيـام به .. وانصرفا من بيت ريما ..

وكانت هند تحتضن ذراع سـلامة على صدرها مما آثار سائق العربة وجعله يصفق باب سيارته بشدة بعد نزولهما ولعن فى الغرباء والمدينة التى دنسوها بأفعالهم ..

وفى صباح اليوم التالى ذهبا الى المحل .. وسعد سلامة به غير أنه فى حاجة الى التنظيف والتجهيز وشراء بعض المقاعد والطاولات .. وطلعت هند الى السندرة حيث طلبت من سلامة تنظيفها وشراء مرتبة وشرسف ومخـدة بدلا من أثاثها الذى أصبح باليا .. وكان سلامة يقول لها كلما أرادت منه عمل شىء :

ـ عينى .. من عينى .. عينى .

وكان يعجبها ذلك وتضحك .. وقبل أن تغادره ذاهبة الى سلها قالت وهى تضغط بأصابعها على يده :

ـ اعتنى بالسندرة .. هذا بيتنا الجديد ..

وجلس بالمحل لا يصدق ما حدث .. لقد تعرف بامرأة لتأتى اليه بهـذا المحل .. وتساءل .. هل فى هـذا واقعيـة ؟..

هل هو يسير فى هذه المدينة بخطى سليمة أم أنه يتخبط .. وأغلق المحل وراح يجوب الشوارع يفكر فى الرجل الذى يساعده فى عمل الحلوى .. كانت الشوارع فى نظره فسيحة والبنايات شاهقة الارتفاع والمركبات يقودها ناس طيبون .. ولما كان يعود الى زقاقه كان النخل منبثقا على الجانبين يحمل أسبطة مملوءة بالتمر .. وفى الفندق عندما دخل المساء تقابل مع عبد اللطيف يحى وهو أحد معارفه بالفندق والذى التقى معهم على عجل .. عرض عليه فكرة المحل ورحب الرجل بذلك واتفقا أن يذهبا معا فى الصباح لتجهيزه .. وفاه سلامة ونزل الى الشارع .. ومر على بيت هند من فرط سعادته بها .. وتمنى لو مال على بابها وصرقه وعندما ترد عليه سيقول لها :

ـ أنا عبد الرؤوف .. ربنا يخليك ..

وضحك ملء قلبه وتابع سيره .. كانت تدور فى رأسه الكثير من المعانى والأفكار .. وكان الناس فى الشارع يهيمون على وجوههم .. وأخذته قدماه الى شوارع لم يطأها من قبل .. وعند زقاق ضيق وجد بيتا له باب خشبى قديم .. واستدار مرتين الى الخلف ليرى أحدا يرقبه .. واقترب من الباب ليجد امرأة حلوة تنهض درجات المنزل الداخلية نحو الباب ورجع للخلف وأطلقت المرأة صوتا وكأنها تقول :

ـ ايش بيك .. ماذا بك ..

فلهث قائلا :

ـ أنا تائه .. تائه .. وتوقف لحظة لما وقعت عباءتها على الأرض فانحنت تلمها .. كانت المرأة ذاهبة الى أحد الفنادق الكبيرة فى المدينة . وكان قميصها الطويل اللامع وجمالها المحبور يدل على أنها ذاهبة الى أرقى أماكن المدينة .. وعاد الى الخلف وأخذ يشق طريقه الى الأمام فى أزقة ودهاليز وسلالم عتيقة ودخل فى شارع الى اليمين واسع باهت الضوء وهرول حتى منتصفه وكان يسمع ضجة مكتومة يثيرها أهل الحى فى بيوتهم عند المساء .. لقد كان الحى الصغير الفقير القديم من أحياء العاصمة الذى يجذب الناس للسهر والونسة وقضاء الوقت .. بيوت معروفة مرخص لها بذلك .. كانت هناك ضجة وضحكات عالية وأصوات نساء وفتيات ورجال تنبعث من بيت الى آخر .. واستدار متشنجا يضيق صدره الى الخلف ويملأه الخوف فلم يستطع أن يهرول وخانته قدماه المرتعشتان من تحته .. كان يستطيع أن يشى فى خوف .. لم يقابله أحد يسأله كيف يخرج من هذا الحى ولم يستطع سرق باب يسأله .. وانتشرت فى أرجاء الأزقة والشوارع الضيقة رائحة السمن واللحم والمرق وتعجب من حى فقير منبعث منه هذه الرائحة .. لقد كان الحى مرارا لكل الناس ومن مختلف الجنسيات .. كان يعرفه القادمون عند سلم الطائرة .. حتى رائحة العطر كانت تعبق فى تلك الحارات والبيوت القديمة .. وتنفس سلامة الصعداء قليلا حيث ألهته رائحة الطعام وشعر بالجوع وفجأة خرج رجل من أحد البيوت قائلا :

ـ من تريد ؟..

سلامة ـ لا أحد .. لا أحد .

الرجل يقترب منه :

ـ من أتى بك اذا ؟

سلامة ـ أبحث عن فندق .

الرجل ـ ليس هنا فنادق .

واقترب الرجل منه يتفحصه بعيون يخرج منها الشرر .. وصفعه على وجهه بقوة .. وحاول سلامة الأمساك بيديه حتى لا يكرر ضربه غير أن الرجل ضربه ثانية على رأسه ولاذ بملابس الرجل يستحلفه .. ماذا فعلت ؟ .. ماذا حدث ؟ .. أنا غريب .. ارحمنى ..

الرجل ـ هذه البيوت لها كرامتها .. لا أحد يتجول فى حينا بعد السابعه مساءا .. وتجرؤ وأنت الخائن الجريوع على أن تدخل بيوت الكرام ..

سلامة ـ لم أعرف هذه التقاليد .. ثبت لى مدى كرم وهذا يحدث لأى انسان غريب ..

الرجل ـ ما اسم أمك ؟ ..

سلامة ـ حميده .

الرجل ـ وهو يمسك بتلابيبه :

ـ يعنى ايه حميده .

سلامة ـ يعنى تحمد الله ..

الرجل يبصق فى وجهه ..

ـ نحن نحمده من غير كلامك يا .. .. ياكانى ..

الرجل ـ كم اسم لحميده فى بلادكم .. أنتم مشهورون بالحمد رغم فقركم ..

سلامة ـ فى قريتنا فقط محمود شكوكو أمه اسمها حميده وعبد الله عفيفى وصالح الهلالى وحسنين عبد الرازق وفرحات شينك ..

الرجل ـ ماذا أفعل بهذه الأسماء يبدو أنك ساذج أبله ..

وضربه الرجل على قفاه وقال مشيرا الى شارع على اليمين .. خذ هذا الشارع حتى تصل .. اجرى بأقصى سرعة .. لو رأيتك هنا ثانية لذبحتك .. هل تسمع .. وفر سلامة من الرجل وهو يقول :

ـ حاضر .. حاضر .. حتى اهتدى الى نزله وهناك ناء يملأه الذعر والخوف .. وعاب على نفسه حبه للآفاق التى أوصلته الى هذا الحى .. .. ان الآفاق عنده هيأت له أن الشوارع تؤدى الى الفندق .. ولم يكن يعرف أن فى ذات الحى هوه سحيقة عريقة فى ظلامها وتقاليدها .. لم يكن يعرف أن رجالا محترمين جدا يقصدون هذا الحى وأن لكل امرأة سعر وقيمة ودرجة وكل بيت له زبائنه وله بضاعته .. لم يكن يعرف أن دخان المدينة عند الفجر ورائحة البوظة المخمرة وأوانى الطعام والكؤوس الفارغة والنساء اللائى نسامرن ورقصن وتأوهن كل قد انكب فى ظلمته نائما أو مترنحا أو متصعلكا .. ان كل هذه الأفعال السيئة تقابل الصدأ وتلوذ به الصدأ

المتراكم على قضبان السكك الحديدية وجدران البيوت الآيلة للسقوط .. هؤلاء لا يعرفون ولا يدركون مهما علت أصواتهم وأحداثهم أنهم ذاهبون الى الظلمة والى الضعف والتردى الى مهانة الانسان مع نفسه .. ومع ذلك ففى كل صباح يفتح الله صفحة جديدة للناس جميعا .. يصفح ويعفو ويعطى وهم لا يبصرون .. فعندما يأتى الليل يهرب الكثيرون مرة أخرى الى الضعف .. ولم يكن سلامة ذليلا مع نفسه لكنه كان ذليلا مع الناس .. وفى صباح اليوم التالى عند الفجر قام وذهب الى الجامع ليصلى فوجد النساء والاطفال والشيوخ .. وهناك أدرك أنه بقدر البيوت المظلمة فى الليل توجد البيوت المنيرة فى نفس الشارع وأحيى والرقى .. ودخل الى المدينة مع أول نور للشمس .. وفى خلال يومين أصبح المحل نظيفا من التراب والوسخ وفى اليوم الثالث تم ملاؤه بالبوية .. وذهبا الى سوق السمك للتعرف على أحواله وتم شراء الأصباغ والمواعين والجلاسات وكل ما يلزم محل بيع السمك المشوى وبعد يومين أخبر سلامة السيدة ريما هاتفيا بأن المحل جاهز للافتتاح وبالصدفة كانت هند تزورها .. غير أن ريما أعربت أنها لا تحب أن تكون المرأة فى أى افتتاح .. وسألت سلامة كيف يكون الافتتاح فى كان .. وعندما شرح لها سلامة .. قالت له أن الافتتاح فى المدينة له معان وأفعال أخرى .. غير أن هند ضربتها على ساقها بيدها وأخذت الهاتف لتقول لسلامة أنها ستكون فى الافتتاح .. وسألته عن تجهيز السندرة فأخبرها بأنه لم

يشترى حاجياتها بعد ورجته أن يجهزها فى الغد .. وأخبرته بأنه لن يكون افتتاح الا بعد أن تكون السندرة أجمل غرفة نوم فى العاصمة . وكانت ريما تتعجب من فجور هند .. وأنهت هند المكالمة بأنهما ينتظراه على الغداء وعليه أن يترك المحل لزميله ويكون عندهما بعد ساعة على الأكثر .. وشعر سلامة بالخجل أثناء ذهابه الى امرأتين فى بيت .. لكنه كيف يخجل وهو رجل أليس لهذه المدينة فجور .. فكيف لا يأخذ منه قليلا .. وقابلته هند عند الباب واحتضنته حتى دخلت به الى صاحبة البيت وكان يريد أن يتخلص من ذراعيها قبل أن تراهما ريما الا أنها أصرت فتركها .. غير أن ريما تملكها الغيظ لكنها ابتسمت ابتسامة باهتة محاولة تحية سلامة .. ولما قعد شعر باستيائها من هند .. فاعتذر لها فى اللحظة التى ذهبت فيها هند لاحضار ماء وقالت له ريما أن الذنب ليس ذنبه ولكنها طلبت منه ألا يعطيها الفرصة وارتاح سلامة لطلبها .. ولما عادت هند تحدثت مع ريما قليلا واستطاعت أن تجعل سيدة البيت تضحك من قلبها ضحكة عالية .. كانت هند تلبس فستانا يظهر جسدها الذى ينبض من تحته .. يرتعش عندما تمشى ويتمايل عندما يقف ويرتعد لما تقعد .. غير أن جسده كان يتجنب وينشغل ويخجل من تبرج المرأة فهل هذه الحياة الضعيفة التى يحياها الناس .. هل الحياة أصلها متمايل مائع منحل .. ان الحياة يجب أن تكون متماسكة وان أصلها يجب أن يكون قويا وخلاقا .. أم أن الحياة خليط بين هذا وذاك

.. هل الحياة حكم من القوى على الضعيف .. وعلى الضعيف أن يقبل حال القوى .. ولما شطح بأفكاره فى تلك الآفاق التى تلامسها النفس جال ببصره فكانت صاحبة البيت تبتسم وترحب وحركتها الدائمة بوضع ساق على الأخرى بين الفتية والأخرى لكفيلة بأن تضفى على المكان كثيرا من المتعة أو الروحة .. فهل هذا هو سكر الحياة الواعى اللذيذ .. وكانت المرأتان قد تناولتا غداءهما .. وأحضرت ريما الطعام لسلامة وتركاه ودخلا الى البيت .. وكان اللقاء يتم بين المرأتين كل منتصف شهر تقريبا وينصب أوله على ثرثرة عامة .. غير أن الثرثرة هذا اليوم انصبت على الرجل الكانى .. وكان رأى هند أنه رجل يثير المرأة بمجرد الدخول عليها أو المرور بجوارها .. تشعر المرأة تجاهه بالعنف والرقة والوداعة فى آن واحد .. وكان رأى ريما أنه رجل يبعث على الاحترام ويريق الحزن فى عينيه كفيل بأن تبحث المرأة عن سره داخل أعماقه .. وأن فى داخل سلامة انسان أكثر من الرجل .. غير أنها احتفظت بهذا الاصرار الأخير ولم تبحه لهند .. أنها ستصل الى سر هذا الانسان فى داخله مهما كلفها ذلك وقت أو مال أو جهد .. وجاءته هند لتأخذ طاولة الطعام ولتخبره أن عليه أن يستريح بعض الوقت لأن ريما تريد أن تقضى معها بعض الوقت وتمايلت عليه وضحكت .. وكانت المرأة الجميلة كالطبيعة الجميلة تقع دائما نهبا لقوى الشر حولها .. ودخلت المرأتان فى غرفة النوم وكل منهن ترتعش وترتعد ولم يكن الجو باردا الى هذا الحد

.. كان الضعف يدخل والرغبة تتلوى .. أكان الضعف شيء عادى .. أم أنه طبيعـة لا تتخلى عنا .. خلعت ريما حذاءها واحتضنت فراشها بالتخت برقة .. وسالت الدموع من عينيها كالسيل .. وألقت هند بحذائها وخلعت فستانها ولم تذهب الى الفراش .. قعدت على المقعـد أمام المرآه تتزين كمـا تتزين لرجل ..

وقالت بحده لريما :

ـ الى متى تظلين حبيسة البيت ...

ولم ترد ريما لكنها تنهدت بقوة واستجمعت بعض قواها ودفنت وجهها فى الفراش وانقلبت على بطنها فى محاولة للنوم .. الا أن أجزاءا من الجسد الناعم الطرى لم تدعها تنم .. ان الحياة تنبعث منها ورغبة الجسد القوية .. آه لو أن أحدا شد شعرها بعنف .. وطوحت بشعرها الأسود الفاحم فانسدل على ظهرها وارتمت أجزاء منه على الفراش الناعم .. كل شيء ناعم ورقيق وهادىء هـذه كل حياتها .. وراحت قليـلا فى أفكارها ثم انقلبت على ظهرها وقالت للمرآة التى تتزين مجيبة على سؤالها :

ـ وماذا تريدين أن أفعل ؟

هند ـ ابحثى عن مخرج لحياتك ..

ريما ــ طالما زوجي على قيد الحياة فأنا لا أستطيع أن أخرج عن تلك الدائرة .. سأظل ألوذ بضعفي وكل ما أبذله مع هذا الضعف سيل من الدموع .. ان ضعفي هو سري ومكنون حياتي .. انه منتهى القوة أن ألجأ الى دموعي .. أكرم لي وأفضل .. ومهما بلغت بي الحاجة الى رجل فاني لن أقدم نفسي الى رجل غير زوجي حتى ولو كان غير قادر على ممارسة الحياة معي كرجل ..

هند ــ وهذا ما حدث لك من أول يوم تزوجت فيه .. لقد تزوجت رجلا مريضا ..

ريما ــ هذا قدري ولست نادمة عليه .. ان زوجي قادر على ممارسة الحياة الانسانية فقط وهذا هو قدره .. يكفي أني تزوجت من رجل مناضل من أجل الحق والحرية والعدالة .. فلقد عوضتني أشياء وخسرت أشياء .. وهذه هي حياتي ..

هند ــ الى متى ..

ريما ــ الى أن يشاء الله .. أنا قانعة بحياتي .. وأنا كفيلة بمعالجة أحزاني وحاجتي و ... أقدم ضعفي لنفسي ولا أقدم ضعفي لرجل مهما كان ..

هند ــ لكنك تقدمين ضعفك لي ألحيانا .

ريما ــ هذا أخف وطأة ..

وهزت هند رأسها وخلعت قميصها فأصبحت عارية تماما وألقت بنفسها على الفراش بجوار ريما قائلة :

ـ كانت هذه المعانى قريبة منى وأنا صبية قبل أن أدخل الحزب و .. هذه المعانى المتماسكة والطيبة والكينونة الى آخر ذلك .. لا أعرفها لقد أصبحت المرأة فى نظرى .. انهم يريدون المرأة خرابة ..

ريما ـ ألم تندفعى الى بريق الاجتماعات والمؤتمرات والشعارات .. ألم تنخدعى ..

هند ـ أندفعت للكبت الذى كنت أعيش فيه فأنت تعرفين بنات العشائر فى أى مدينة .. وانخدعت لأنى جاهلة بالمجتمع أيضا لأنى بنت عشيرة فى مدينة .. ماذا تتوقعين من بدوى جاءوا به من الجبل ليدرب على تولى الأمور ومنحه سلطة .. ماذا تنتظرين من حيوانات تقدم لهم فتيات صغيرات مراهقات لا يعرفن شيئا .. قاموا بتدريبنا على ضرب النار والاسعاف والعدو والقاء المحاضرات والشعارات .. كانت الواحدة منا تتصور نفسها بطلة أو مثلا .. وفى خلال هذا النشاط وهذه الأفكار المتداخلة والغرور والمراهقة والمال والسيارات والوظائف والمزايا يهتك أعراض العذارى .. لقد أتوا بكل أنواع الشذوذ من خيامهم وجبالهم وظلامهم ليشبعوا كل فتاة دخلت اليهم وتخرج الفتاة من هذه الحمى بأن ذلك شىء عادى

وأن هذه هى الصورة المثلى للمرأة فى ظل المجتمع الجديد .. صعوا فى النهاية مجتمعا جديدا تسلكه الرذيلة .. أو يبدأ من الرذيلة وعليه أن يسرى فى المجتمع كله ..

ريما ـ مجتمع لا يخاف .. المجتمع النظيف لابد أن يخاف ..

هند ـ يعنى المجتمع القذر لا يخاف .

ريما ـ نعم لا يخاف الله .. من خاف الله فى كل عمل من أعماله حتى فى الكلمة التى تخرج من فمه حفظه رب السماء من كل سوء .. هذا ما يجب أن تتعلمه ونحن صغار ..

هند ـ لم أتعلم هذا .. لم تكن تقام الصلاة بصورة منتظمة فى بيتنا .. وكان أهم شىء ارتداء العباءة ومداراة الوجه والعين قدر ما يمكن ..

ريما ـ كان يجب أن نتعلم ونحن صغارا حتى يكبر معنا الحياء والخوف ..

هند ـ مصيبتنا أننا نخاف الناس .. أشعر أن الحياة كبرت على لأن الناس يخافون الناس .. ولو كنا نخاف الله حقا لكانت الحياة ملك أيدينا ولنشأت قيم غير هذه ..

ريما ـ دعك من هذه الأفكار الكبيرة علينا .. تعال .. وارتفعت ضحكاتهما وسرى الشوق بينهما وخلعت كل

منهما ملابس الأخرى .. ودخلتا تحت الغطاء ترتعدان ولاذت كل منهما بالأخرى فى نشوة وشهوة وشبق أشد من الضعف .. لقد كان الحدث اليومى فى المدينة عنيفا .. ففى شارع الونيس حيث يوجد الكانيين تتلاطم أعمال العنف كموج البحر .. وفى هذا الحى الهادى الراقى تقترف النساء الجميلات ما هو أشد عنفا وبوهيمية .. هل كان الحدث اليومى فى المدينة قوى وجارف .. هل الحى الجميل كالحى القبيح .. وأن الناس فى كل الأحياء يلجأون الى كل الحالات التى تؤدى بهم الى لا شىء ..

ولما أمس الليل هربا سلامة وهند فى عربة أجرة .. وكانت هند تشعر ببعض التعب كالذى أصابه بعض الانفلونزا .. ورغم ذلك طلبت من سلامة بأن يعرجا على المحل .. وهناك سعدت كثيرا بالحانوت وأكثر بنظافة السندرة وفرشها أثاثا جديدا .. وشعرت ببعض التعب الذى ألم بها بعد الخروج من بيت ريما فاستندت على سلامة بالسندرة فاحتضنها وقبلها غير أنه ربت على ظهرها وكأنه يذكرها بتأخر الوقت فهزت رأسها ولملمت عباءتها التى وقعت ونزلت وهو يمسك بها وتواعدت معه أن يلتقيا غدا فى المحل صباحا وقبل أن يفتتح بعد الغد .. وذكرته بأن هذه عادة المدينة فلنفعل كما يفعلون .. وركبا عربة ونزلا فى حيهما وقصد كل منهما بيته .. وتأكد لسلامة وهو يسير الى نزله أن كل شىء له ثمن وأنه ضعيف وعليه أن يقبل

شروط الأقوياء .. وعلى فراشه تساءل .. هل هذا حب .. هل هذا حب المدينة أو حب هذه المرأة .. وتألم لأنه بدأ يفسق وعليه أن يتزوج بهـا حتى يقضى على العلاقة المشبوبة .. اذا ما فائدة صلاته .. ان الحب أكبر من ذلك بكثير .. لمـاذا يصنع الانسان هذا الحب .. هل تعاون الجميع على بناء الحب المملوء بالرغبة .. أم أن هذا ليس حبا بالمرة وأنه علاقات على طريق الحياة حتى يصل الناس الى أهدافهم المـادية .. أم أن هذا نوع من الحب ولكنه عجرى .. صنعه الناس بينهم ليقضى كل منهم حاجته ويمضى .. هل هنـاك حب نخفيه فى قلوبنا وحب تتشدق به فى أفواهنا نلعب به ونتلاعب بالناس .. الحب لا يمكن أن يكون عجريا .. ليس حذاءا نخلعه حين ننام وليس بصقة على قارعة طريق .. الحب هو الحب وما نفعله هو لعب تتشدق به وشباب نفجر به وسلوك نفسق به .. وقام الى نافذته وأطل منها قليلا .. وقال وكأنه يعلن على الملأ :

ـ أيها السادة حين ودعت هند لم أسخر منها ولن أزدريها .. انها تسير سيرا طبيعيا فى طريق الحب المتعارف عليه وعلى أن أتزوج بها فى محاولة لاصلاح ما بينى وبينها ..

ـ وفى الصباح كان سلامة وعبد اللطيف قبل السـابعة يفتحان الحانوت .. ونقده سلامة لفة نقود لشراء بعض الأوانى ومكتب صغير به درج .. وجاءته هند قبل الثامنة فانبهر بها وعرض عليها الزواج فأخبرته أن الزواج فى أوراق رسمية له

شروط ويأخذ وقتا واجراءات حكومية ناهيك هل يرضى أبى وأمى حيث أنهم يفضلون رجال العشائر .. وقد لا يتقدم أى رجل من أى عشيرة .. فانهم يفضلون أن تبقى ابنتهم بلا رجل خوفا من المغامرة بها فى تزويجها من رجل غريب أو حتى من المدينة .. وأخبرها سلامة أن ما حدث بينهما وما سيحدث يخالف الدين ولا يرضى عنه الله .. وفكرت هند كثيرا فى كلامه الجديد عليها وترك أثرا طيبا فى نفسها وفكرت قليلا وهى قاعدة قباله وقالت :

ـ لقد كنت أفكر فى الحرية .. وأنت الرجل الذى ستأخذنى اليها ..

سلامة ـ ألم يكن لك قلب فى يوم وبصيرة لتعرفى معنى الحرية .. ليس هذا حرية ..

الحرية أن أدوس على قيم وأغضب الله .. خذى من الحرية ما تشائين على أن لا تغضبى الله .. يعنى لا أسرق ولا أنهم ولا أزنى و .. ولا أقتل .. و ..

هند ـ ما حدث بيننا زنا .. تقصد .

سلامة ـ هذه حقيقة . نعم زنا .. وطبعا أنا جهزت السندرة كما قلت وأن الافتتاح يجب ويجب .. هذا ما فعلناه بأيدينا .. أليس فى أيدينا أن تتزوج .. حتى تكون حرية مشروعة لها قيم ..

هند ـ لو كان فى يدى الزواج لفعلت .. قلت لك زواجى

فى أيد اجراءات حكومية قد تطول الى عام .. فهل أنتظر فى علاقتى بك عام .. لا أستطيع .. ومن الناحية الأخرى أبى وأمى يرفضون تماما كما قلت لك ..

سلامة : ما الحل اذا .. أرجوك يا هند أنا غريب .. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من زنا فى غربته لا رده الله غانما .. وان رده غانما لا رده سالما ..

ما رأيك فى هذا ..

هند وهى تتأمل الرجل :

ـ أنت تخرجنى من دائرة الاغتصاب .. انك الحب بعد الاغتصاب .. لقد اغتصبونى فى الحزب وأجهزة النظام المختلفة أقول لك سرا .. لقد فعلوا بى كل أنواع النذوذ .. لقد مارسوا معى من الخلف .. هل تعرف لماذا .. لأن المرأة لما تتزوج ليس معقولا أن تطلب من زوجها أن يأتها من الخلف وهى تكون فى حاجة الى ذلك فعندما تزداد بها الحاجة تذهب اليهم .. حتى تكون متعلقة بهم أو تحت قبضتهم هكذا المهانة التى سلطها عباس على رقاب العباد ..

وصمت سلامة متألما غير أنه قال متجاسرا :

ـ يرحمك الله ويرحم الناس وأنا .. وسكت هنيهة وتابع .. أنا لا أستطيع أن أستمر فى هذه العلاقة دون زواج وأريدها أن تستمر بالزواج فهل توافقينى .. ان لم توافقى فهذا هو الحل وهذا مفتاحه .. بالله ..

هند والدموع تزرف من عينيها :

لا .. لا .. الله .. لا أستطيع .. نعم سأفكر .. ولكن قضيتى .. قضيتى ..

سلامة ــ أى قضية ..

هند ــ قضيتى مع الذين اعتدوا على ..

سلامة ــ انها قضية آلاف الفتيات .. أقصد النساء بالمدينة .. لو قتلت واحدة منكن واحدا منهم لسقطت المدينة .. أما علاجكم فأعتقد أن الطب لديه علاج لهذه الحالات ..

هند ــ والله هذا رأى صائب .. والله هذا رأى واقعى ..

سلامة ــ جئت الى بلادكم أحمل قضية الخوف من الحرمان والجوع فأجد فى بلادكم قضية الخوف من البطش والقمع .. قضية الحرية .. قضايا النساء المعتدى عليهن وقد يكون الرجل أيضا .. قضية عباس ورجاله .. أى قضايا حقيره يمتلىء بها هذا العالم ..

هند ــ عباس ورجاله لا يخافون الله .. ومن يفعل ذلك يلد لبلده الخوف والرعب .. ان أكبر شىء فى بلادنا الانحناء تحت أقدام عباس ورجاله حتى نكون وطنيين ومخلصين ورجال ونساء وطن وأمة و .. وغير ذلك يعتبر تهجم على شخص

عباس ويكون مجـرم وخـائن للأمـة .. الكافر فى بلادنا هو من كفر بعباس أو انتقده .. مهزلة انسانية لا يراها العالم .. ان بلادنا سجن كبير بلا أسوار .. ولتعرف أنه فتح لكم حدود البلاد لخدمة مصالحه أولا ولتعربدوا أيضا .. انه يعطى حرية العربدة ليحمى نظامه .. وطبعا يستفيد منكم فى الأعمال الصـعبة وتجنيد بعضكم و .. و .. انها سياسة لها أغراض أخرى غير المرئى منها ..

سلامة ـ عودى بنا الى قضيتنا .. أرجـوك تعالى نحل هذه القضـية بشرف .. بقـدر من الفضيلة ان كانت لدينـا بقية منهـا ..

هند ـ غدا بعد المغرب .. لقد أجلت الافتتاح .. افتتح دون الافتتاح المتعارف عليه لقد اقتنعت بأفكارك .. فى أول المساء سأكون هنا .. انتظرني ..

سلامة ـ ومعك الحل ..

وفى الظهيرة طلع سلامة يستريح من عناء العمل فى تجهيز الحانوت وذهب عبد اللطيف يشرب شايا بالمقهى .. وراح فى آفاقه التى فتحتها له هند هذا الصباح .. فى كل مدينة قضية .. المدينة هنا تسقط تحت أسوار عالية مخيفة .. أسوار لهـا أغلال وأصوات لهـا نفير وبيوت وقصور وأحياء جديدة هادئة فى شـكلها لكنهم مساقون جميعـا الى أكثر من الخوف ..

الرعب والقمع .. لقد أصبح هتك الأعراض عادة .. وحرية جديدة فهي وسيلة لتطويق المجتمع .. مجتمع مملوء بالجواسيس يهتك أسرار بعضه بعضا .. فالرجل يخاف من زوجته .والأم تخاف من ابنتها .. وهذه هي الوطنية والاخلاص .. ان الانسان في هذه المدينة هو القبر نفسه .. فكيف سيكون حالي .. لماذا آتيت الى هذه البلاد .. لماذا لا أعود ..

وانصرفت هند يحذوها الأمل وتدفعها الرغبه والحب لهذا الكاني .. ولما دخلت البيت وجدت أمها متعبة متوترة ولما سألتها عن ذلك أخبرتها أمها بأن سعيد السنوحي قد عاد .. فدق قلب هند وعربدت رياح كريهة في داخلها وقالت لأمها وهي ترمي بحذائها بصوت يمتلىء ندامه :

ـ وأين كان هذا الأفعى .. وماذا يريد مني .. ؟

الأم في حزن وغم :

ـ حدثني في الهاتف عند الضحى وأخبرني بأنه يريد أن يلقاك غدا .

هند ـ وماذا قلت له ..

الأم ـ ماذا تريد منها .. ماذا تريدون .. ألا ينبغي أن ينصرف كل الى سبيله ..

هند ـ وكيف كان رده ..

الأم ـ ايش بيك يامعوده .. بعني ماذا بك يا امرأة .. لا أستطيع الاستغناء عنها انها حبيبتي ..

وخلعت هند ملابسها وهوت الى جانب المقعد .. وقطعت طفلتها الشرود الذى ألم بها وقعدت فى حجرها تحدثها وتمسك بذقنها .. وهند كعادتها لا تنتبه اليها الا قليلا .. تقبلها قبلات جوفاء وتضمها الى صدرها الخال من الدفء .. وتسألها الأسئلة العادية المألوفة من يوم لآخر .. استذكرى دروسك .. هل تناولت الطعام .. الجدة ستعمل لك حمام اليوم .. ثم تصرفها عنها وتقول .. اذهبى الى جدتك .. أنا متعبة سأنام .. وترفض الطفلة الذهاب عنها .. فتزعق فيها .. اذهبى عنى .. فتنصرف الطفلة تلويها أحزانها الى جدتها .. كانت دموعها تسيل على خديها فتمسح عنها جدتها وتحتضنها غير أن شعورها بالألم نحو أمها يكبر معها ويلوى رأسها الصغير ..

ـ سعيد السنوحى رجل سخيف فى الاربعين من العمر .. ولدته أمه فى احدى حجرات سيدها المنتشرة عند سور البيت الريفى الكبير الذى تعمل خادمة فيه .. وكان أبوه يعمل جوالا فى الأسواق لصاحب البيت .. بمعنى أنه يبحث عنه الماشية والأغنام والابل التى تصلح لهذا الرجل الفنى .. وهو يعرف أن زوجته .. أم سعيد تذهب كل مساء فى الغرف الداخلية لتدلك جسد سيده من وراء صاحبة البيت .. غير أنه حين كانت زوجة الرجل تغادر البيت الى زيارة لأبيها وأهلها فى ناحية أخرى .. كانت أم سعيد تطلع الى الرجل علانية أمام الخدم

والعاملين لقضاء وقت طويل مع سيدها .. وكان زوجها يرى ذلك بأم عينيه وهو فى كامل الرضـــا .. وكانت المرأة تهمس فى أذن زوجها عندما تعود :

ـ من أجل ســعيد .. من أجل ســعيد ..

ولمـــا كبر ســعيد رأى كل شيء بعينه .. كانت الأرض تهتز من تحته والحياة لا تعدو سور البيت الكبير وأمه وأبيه والحجرة التى يعيشون فيها وقيامه ببعض الأعمال الزراعية التى يقدر عليها فى الحقل وقد حصل على الدراسة الاعدادية بصعوبة بعد أن رسب فيهـــا مرتين .. والتقطته الطلائع وأعطته هوية كشاف ووجد فيها ملاذه .. لقد كان بلا هوية بلا مســتقبل وصنعت له ما أراد .. وكانت الطلائع خلاصة من ماضيه وتفانى فى خدمتها وكان مستعدا أن يضع كل رجل صاحب بيت كبير فى الســجن حتى يعتلى درجة أو يحصل على علاوة .. حتى وصـــل الى رتبة متقدمة فى الحزب لمـــا بلغ عمره الخامســـة والثلاثين .. وأصبح مســئول منطقة .. وله تاريخ حقير مع فتيات المجتمع ونســـائه فقد نكل بالكثيرات وأفقدهن أغلى ما عندهن .. كان ســعيد السنوحى ابن قحبة حقيقية وهـــذا معروف عنه فى الناحية كلها .. الاعتداء والتنكيل وسام على صـــدره حتى أصبح فى نظر المســئولين من الأبطال .. ومن خيرة رجال الحزب سيرة اجتماعية وهو متزوج من امرأة جاوزت الثلاثين عمرا .. ولقد مرت بثلاث تجارب مع الرجال قبله ..

وهى تلتقى بكل سائق يعمل عندها حتى وقتنا هذا .. وللسنوحى منها ولدان وطفلة ..

ـ وفى صباح اليوم التالى عند وقت الضحى ركبت اليه ووصلته فى الحادية عشرة .. وكانت عيناه الزرقاوان ذات الشكل البيضاوى تلتوى يمنه ويسره كعيون البومه وتهيأ لهند أنهما تنزفان دما .. كان سائلا غريبا كالريم يتكون فوق حبات عينه .. وشعره الأصفر الثقيل وأنفه الأفطس المخيف وحاجبيه الكثيفين .. كان وجهه فى جلسته كالغابة تكتنفها ظلمة لا تنتهى ..

وارتعد جسد المرأة عندما دخلت معه احدى الغرف بعد أن قال لها بصوت مبحوح .. مرحبا .. هلا بالأخت .. هلا بالرفيقة ..

هند وهى تلتوى بين ذراعيه حسرة وألما ..

ـ هلا بالركيك ..

الركيك ـ أخبارك أحوالك ..

هند ـ مطيعة وطنية تحت أوامر الحزب العظيم فى أى لحظة ألبى النداء كما تعلمنا ..

الركيك ـ ومازلت مخلصة لى ..

هند ـ كما ترى ..

الركيك ـ قولى للقحبة أمك أن تكون مؤدبة معى والا .. وهز رأسه وتابع قائلا .. لولا أنها أمك ..

هند ـ أمى قحبة لأنها تريد أن تبعدك عنى .. سامحها ياركيك الجنوب .. أنت رجل كبير .. فأطرق برأسه الى الأرض وظهرت على وجهه سيماء السعادة عندما أطرت عليه وزادته هند فى النفاق وبين كل جملة وأخرى كانت تشتم فيه وفى أمه كما يفعل كل الخائفون .. أمك وليده كل قحبات هذا العالم .. كل الناس تقول فى ناحيتكم عندما يمرون على سور بيت الرجل الغنى .. هذه بلدة سمانه القحبة أم سعيد السنوحى ..

وأشعل سيجارة وضحك وقال وكأنه يبصق :

ـ اذهبى ياقحبة الى غرفة النوم .. وضحك .. وابتسمت موافقة وذهبت وخلعت وانطرحت على الفراش .. قدمت له جسدا باردا مثل لوح ثلج ثم وقع كالكلب يلهث عند أقدامها وأقبل عليها وهو يصرخ ولما انتهى طلب منها ملازمته حتى ينام وانبطح على بطنه يعض فى الوسادة حتى كاد أن يمزقها وشرب كثيرا من الخمر ثم راح فى نوم عميق .. وذهبت الى الحمام .. ودق الهاتف فلم يرد عليه أحد .. ثم دق ثانية فتركته ولم تبال كان عليها أن تخرج من الوحل .. لكنه دق ثالثة ورفعت الهاتف قائلة :

ـ هالو ..

كان فى صوت الأم طاقة غريبة :

ـ هل انتهيت ياهند ..

فوجئت بصوت أمها وكادت سماعة الهاتف تقع من يدها :

ـ أمى .. أمى ..

الأم فى غضب :

ـ هل ذهب فى غيبوبة ..

هند ـ ونام .. نام .. ذهب فى غيبوبة ثم نام كعادته يا أمى ..

الأم ـ هل تعرفين القضاء عليه ..

هند ـ يا أمى .. يا .. لا انى خائفة .. خائفة ..

الأم ـ لو كنت تريدين الانتقام لشرفك لفعلت .. أنت مازلت تائهة غير رشيدة ..

هند ـ وماذا أفعل يا أمى وحالى هكذا ..

الأم ـ انتظرينى سأحضر حالا ..

هند ـ الهاتف قد يكون مراقبا ..

الأم ـ لا يهم .. يموت الانسان موتة واحدة .. وعلى العموم هم لم يغضبوا عليك بعد حتى يراقبوا هاتفك .... لا يهم بالقندره ..

هند ـ نعم يا أمى .. نعم ..

كان الركيك تلم به غيبوبة بعد لقائه بأى امرأة ويظل يعانى منها حتى الضحى العال فى اليوم التالى .. ولما انتهت

من هاتفها ذهبت الى جراج السيارة وأحضرت علبة بها بقية من بنزين وحبلا طويلا وجلست فى صالة البيت تفكر فى قتله بالوقود على أن تربطه من ساقه بالحبل حتى تقضى عليه النار ولا يعرف كيف يفر ولما وصلت الى نهاية تفكيرها .. عادت وفكرت من جديد غير أنها لم تجرؤ على عمل شيء .. وسمعت نقرا بالباب الخارجى وصوتا .. لم تتأكد أنه صوت أمها وهرولت الى السور وتأكدت من صوت أمها قائلا .. هند .. هند .. ودخلت الأم قوية لا يثنيها شيء عما نوته وأحكمت هند الباب وأسرعت خلف المرأة التى هبطت من السماء .. هكذا تهيأ لهند ولحظة ظنت أن هذه ليست أمها .. لكنها تأكدت بأن أمها هى هذه المرأة التى تتأكد من مسدسها وأنه محشو تماما بالرصاص ولما دخلتا عليه لم يكن الا سعيد السطوحى يغب فى شخيره العال .. وثار الغضب وتقدمت نحوه وانصب عليه وابلا من الرصاص فى رأسه وصدره وصرخ وعلا قليلا برأسه ثم هوى وجأر وخار يلتوى يمنه ويسره ثم ارتمى على ظهره يغطيه الدم الغزير .. لقد مزقت الأم جدارا بشعا من الظلم والاغتصاب والمهانة اصاب بينها وعشرات من البيوت غيرها .. انتهى واحد من المنحدرين السفلة فى هذا البلد .. هكذا قالت الأم وتراجعت عنه وهى أكثر قوة وهند تغطى وجهها وعينيها وتتهالك على مقعد بالصالة .. ونهرتها الأم بقولها : لماذا تقعدين هنا أليس أجدر بك أن تلملمى خالك وتنقلبى الى البيت .. قومى .. قومى .. من الباب الجانبى

أخرجى .. دعى الباب الرئيسى مقفولا .. وأشارت بيدها الى الباب الصغير .. قومى .. ليس هناك وقت .. نرجو من الله الستر .. اذهبى .. وتمايلت خائره القوى وسقطت عند الباب الداخلى الواصل للجنينة ثم قامت .. وتلفتت يمنه ويسره فى الشارع الجانبى فلم ترى أحدا .. لقد كان عاديا أن يسمع الجيران هذه الطلقات فى أى بيت حيث أن أصحابها يقومون باصطياد الطيور التى تقف على قمم الشجر المتناثرة فى تلك الحدائق وحول البيوت ...

وبقيت الأم بعض الوقت تعدل من ملابسها وتتأكد من موته ولما شعرت بأن الجو عادياً ألقت نظرة على السور من نافذة المطبخ ومشت بخطى ثابتة نحو الباب الذى طلعت منه هند .. غير أنها وجدت امرأة بدوية تسوق أمامها بعض الماعز .. فرجعت قليلا وأعادت قفل الباب حتى انزوت تلك الأعرابية عن الرؤى .. ثم تقدمت الى الشارع قائلة .. حمدا لله .. حمدا لله .. وابتلعها الشارع الخاوى ومشيت وسطه متظاهرة برباطه الجأش .. ووصلت الى ميدان صغير فيه دخلت محلا للبقالة .. شربت الماء وتناولت الكولا واشترت بعض البقالة وضعتها فى حقيبتها وانصرفت ثانية متظاهرة بالقوة .. انصرفت الى زوايا الشوارع الأخرى بالحى .. وتلفتت يمنه ويسره بحثا عن عربة أجرة .. ولم تسر دقائق حتى ترجلت احداها الى وسط المدينة ..

الفصل الثانى

وفى قلب العاصمة غابت عن كل الأنظـار .. دخلت فى حوارى وأزقة لم ترها من قبل .. قصدتها كى تشعر بأنها ذابت وسط الزحام ولكى تشـعر بأنها ألقت بفعلها خارج البيت فى المدينة الواسعة قبل أن تذهب الى بيتها .. وكان الليل يقترب من النهار وهى مازالت تمشى من مكان الى آخر متظاهرة بأنها تتسوق .. وبدأت الشمس تدخل أفق المغيب .. ومرت سحابات ثقيلة فى عنق السماء .. ودقت عجلات المركبات الأرض بقوة .. وكأن أرض النهار تهتز فرحة على أحداث اليوم .. ترى أى أحداث فى الغد .. وقصدت أخيرا سوق النسـاء لتشترى هدية لابنتها وللطفلة الصغيرة . وتمنت المرأة لو أنها فعلت ذلك لكل فتاة وامرأة لها قصة فى مدينة غاب فيها النور .. لكنها زفرت نفسا الى أعلا وقالت .. على كل أم أن تفعل .. انهـا تعتقد أن كل البنات صغيرات على هذا العمل .. لو فعلت كل أم أو كل فتاة لماتت كلاب المدينة .. .. غير أن المرأة هدأت قليلا بعد أن تخيلت أن كل أم ستفعل وأن المدينة أصبحت منوره وأن .. وأن .. وفكرت فى زوجها الذى سيصل غـدا .. ماذا تعد له من طعام وماذا تفعل له كزوجة .. اشترت أدوات للزينة كالمساحيق الجميلة والعطر .. لمـاذا لا تتعطر له وتتزين

.. انها منذ زمن لم تفعل .. ألا يحق لها ذلك .. لقد انقشع اليوم شيء من الظلام القابع فوق صدرها .. لكنها بعد ما ركبت الباص متوجهة الى بيتها أيقنت أن عملها هذا لن يتكرر من الأخريات وقد لا يحدث مرة ثانية معها .. ان مدينة يبحث الناس فيها عن الدراهم لن ترى النور .. فلن يذهب عنها أهلها ولن يرحل عنها المهاجرون .. ان الذين يبحثون عن أي حقيقة يتهمون ويعتقلون .. يقيدون بالأغلال داخل البيوت والفنادق والأسوار غير الذين هناك في المعتقلات والسجون .. ان الأبطال هم أطفال هذه المدينة مع أمهاتهم يعتقلون .. ان الحيطان الباردة تعوي على الأطفال وقلوب أمهاتهم يحترق والمدينة خرساء وعباس بطل في عيون نفسه وزبائنه .. وكان على الناس أن يحدوا حلا وسطا أو حكيما .. لكنهم لم يتحدوا .. ولم يكن هناك غير أن يخنعوا .. الخنوع لا يكلف الانسان غير أن يكون قفاه مصطلة تطرقع عليها قباقيب الزبائنية والمنحدرين .. وهذا ما يفعله الانسان في عالمنا الصغير ..

ومرت الأيام كان سلامة فيها سباقا للتمتع بهند في في السندره .. وكان يسمع منها عبارات لم يسمعها من قبل .. كانت شفاه العاشقة عطرة دائما بالندى والعطر .. لقد سعد بمباهج جديدة سبر غورها ولم يتورع عن الخوض في الفجور واللذة التي لا تنتهي يوما بعد آخر مع امرأة لم تحب من قبل ولم تعشق لكنها كانت تغتصب فجن جنونها به .. فأشبعت

ملذاتها وأطعمته ألذ الطعام وأشهاه وأغدقت عليه الدراهم .. لقد غاصت هند فى خمر شبابه وارتوت وكان عشقها له يزداد بقدر ما كرهت الذى اغتصبها وهتك عرضها وكانت تقول له دائمـا وهما فى قمة اللقاء :

ـ هل تحبنى
ـ طبعـا
ـ صحيح
ـ وحياتك
ـ ألم تعرف امرأة قبلى
ـ فى حياتى
ـ أيمكن أن تكون لى أبدا
ـ طبعـا
ـ ومن أدرانى
ـ أحبك
ـ قولها ثانية
ـ أحبك يا هند ..

وغرقت وغرق سلامة وكان بينهما عقد عرفى أنقذهما من الشعور باقتراف اثم .. لكن سلامة كان يشعر بأنه زواج مشوب .. لأن الأساس فى العقد الاستمرار .. وكان يبعد عنه أى ندم بقوله .. والله أنا أنوى الاستمرار .. أما هى فكانت لا تفكر فى أى شىء من الندم .. كانت تعتبر الزواج صحيحا

طالما لم يستطيعا زواجا علنيا توافق عليه الحكومة وتقبله الأسرة .. وكان قد شهد على العقد رجلان من كان واحد يدعى محمد سامى يعمل محاسبا وآخر يعمل فى محل للحلوى يدعى سيد محمود وكلاهما رجل طيب يحب الخير للناس جميعا ..

وفى ذات صباح شاهد عبد اللطيف هند وهى عارية تماما حيث كانت تمر من الحمام مجتازة المحل الى السندرة .. فاشتعلت فى صدره الشهوة وتأوهت دائرة الحقد لديه على سلامة .. وكان عبد اللطيف ينام فى المحل عندما يكون تعبا من عمل النهار .. وهو يعلم أن سلامة يلتقى مع هند كثيرا كل صباح ولما كان سلامة يدخل ومعه هند يجدانه يرقد قرب الحمام على طاولة وضع عليها فراشا للنوم .. وكان يعمل كأنه نائم بأن يعلى درجة شخيره .. وكان الرجل والمرأة يعتقدان بأنه نائم نوما ثقيلا .. غير أن عبد اللطيف تعود على ذلك وكان يستمتع فى الاستماع اليهما .. وكلما مرت الأيام زاد الحقد فى داخله وانتوى أن يفعل شيئا من أجل نفسه .. وكانت المرأة تقص على سلامة كل يوم جزءا من حياتها فعرف سلامة كل شىء عنها وعرف أنها هى وغيرها ضحية نظام فاسد وأن مجتمعا معظمه من عشائر كان سيكون من أفضل المجتمعات على وجه البطيحة لو تعامل النظام مع المجتمع بالحسنى . وانه فى العشائر والقبائل لتجد أسرا ومجتمعات متماسكة قل أن تجد مثلها فى

نواحى العالم المختلفة .. لكن كيف نتعامل مع هؤلاء ونجذبهم الى الحياة والحضـــارة أو المدينة مع الحفاظ على التقاليد .. ان الملك ومجتمعه لخير مثال لهذه المجتمعات العشائرية المتحضرة .. لقد جذب مجتمعه نحـــو الحضـــارة وهو مازال متمسكا بسبادئه واطاره الذى أصبح أشد قوة مما قبل .. وهذا هو الفرق بين النظام الفاسد والنظام الخلاق .. وكان هذا الحديث يدور بينهمـــا كثيرا وكل يوم .. كان كل منهمـــا يتطلع الى مجتمع يحميه ..

سلامة ــ ليتك تدركين ما أعانيه ..

هند ــ من أى شىء تعانى .. لقـــد أعطيتك كل ما فى الحيـــاة ..

سلامة ــ ورغم ذلك فانى أشـــعر بالتوتر والقلق حولى من فوقى وتحتى ..

هند ــ لمـــاذا الا تعيش يومك .. فأنا المرأة وهذا المـــال والطعام والعش الجميل ..

سلامة ــ مثل عش العصفور على فروع الشجر ..

هند ــ أنت خير من غيرك .. أنت لم تر أهـــل كان فى المدينة انهم يقومون بأعمال صعبة للغاية من أجل النجاح برحلتهم .. ويعيشون فى أقذر الفنادق وأحطها ..

سلامة ــ مازلت مصرا على أنى أعيش فوق كف عفريت .. فأنا أتلفت خلفى وحولى خوفا من الذين يراقبون الناس .. طيلة حياتى عشت فى كان لم أجد هذه الملاحقة للناس فى حياتهم ولم يسألنى أحد عن اتجاهى .. ان الحياة هنا هى الخبل الحقيقى .. صحيح أن الناس تعيش فى خير جديد عليها ويأكلون ما يريدون ولكنك تشعرين أن رجلا خلف الجدار المجهول يتابعهم ويوصى بعلفهم وكأنه سيذبحهم فى الغد .. أشعر أن مجتمعا بكامله يعلف كالخرفان لأنه سيذبح فى يوم لا مفر منه ..

هند ــ اذا كان على الذبح فان الجميع يذبحون قبل مجىء هذا اليوم .. اليس الاغتصاب للمرأة أو الرجل هو أقصى أنواع الذبح ..

سلامة ــ وهل هناك رجال يغتصبون ..

هند ــ نعم .. ألم أخبرك بأنه جاء بأناس ليس لهم أى هوية ليكونوا جنود حزبه .. وهؤلاء الرجال لا قيم لهم ولا تربية هم من أحط وأحقر أسر هذا المجتمع .. ..

سلامة ــ أريد أن أهرب ..

هند ــ خذنى معك ..

سلامة ــ وطفلتك ..

هند ــ نأخذها معنا ..

سلامة ــ وأمك وأبوك ..

هند ــ الى أين نهرب ..

سلامة ــ الى بلاد الملك ..

هند ــ أين هى ؟ ..

سلامة ــ عبر الحدود ..

هند ــ أهناك حياة أعظم شأنا حقا ..

سلامة ــ حياة اسلامية حقيقية .. انهم يطورون حياتهم ويحافظون على أعراضهم .. ويتقدمون فى كل مجالات الحياة والملك يصل كل ما يربح مجتمعه .. لا حزب .. ولا طلائع .. لا اتجاهات .. الاتجاه أخلاقى .. والسلوك سوى والصلاة فى المساجد كل وقت للناس جميعا .. الصلاة فى بلادكم تطرف .. يالها من مصيبة ..

هند ــ أنا لم أصلى فى حياتى ..

سلامة ــ لماذا ؟

هند ــ أبى يصلى فى المسجد .. ليس كل الأوقات يصلى وأمى لا تصلى أبدا .. فلم أعرف الصلاة وفى الحزب تركونا وشأننا .. ومن كانت تصلى جعلوها تترك الصلاة .. و ..

سلامة ــ اذا لم أستطع الهرب الى بلاد الملك .. لى أن أعود الى بلدى ..

هند ــ فى كل الأحوال خذنى معك .. أرجوك ..

سلامة ــ عليك أن تترقبى الرحيل فى أى وقت ..

ومرت الأيام والشهور وجاء شاكر حسون الى الفندق ودار بينه وبين سلامة حديثا قد يكون مكررا :

شاكر ــ أليس لك أصدقاء ..

سلامة ــ لا ..

شاكر ــ هل أنت سعيد بعملك فى مطعم ؟ ..

سلامة ــ أفضل من لا شىء .. وكان سلامة قد أخبره بأنه يعمل عاملا فى مطعم ..

شاكر ــ حرام هذه الوجاهة وهذا الكبرياء يكون عاملا فى مطعم ..

سلامة ــ وماذا أفعل ..

شاكر ــ اتجاهك غير واضح .. ومازلت أبحث مع أولاد كان الذين يتعاونون معنا عن اتجاه عبد الرؤف فى بلاد كان ..

سلامة ــ ليس لى أى اتجاه .. فأنا رجل على الله .. جئت من بلادى لأعمل وأعود ببعض النقود ..

شاكر ــ تعاون معنا أولا وسأدبر لك وظيفة محترمة فى أى دائرة ..

سلامة ــ أنا .. أنا ..

شاكر ــ هل دخلت العسكرية فى بلادكم ؟

سلامة ــ نعم ..

شاكر ــ هل تحب أن تلتحق بها لدينا ؟

سلامة ــ لست خبيرا فى العسكرية ولا أحبها ..

شاكر ــ فى أى سلاح خدمت ..

سلامة ــ الدفاع الجوى ..

شاكر ــ ما هو النظام فى الدفاع الجوى .. بأى نظام تجهزون كتائبكم ..

سلامة ــ كنت أرى الصواريخ مقامة فى الدشم وكذلك أجهزة الرادار فى أعلا كل تبة ولكن لم أعرف أى نظام ولا كيفية العمل بها ..

شاكر ــ كيف ألم يكن سلاحك ..

سلامة ــ كان عملى هو توجيه معنوى الكتيبة ..

شاكر ــ ألم يكن لك أصدقاء .. أقصد زملاء فى العسكرية يعملون هنا ..

سلامة ــ كان لى صديق يدعى سيد حبيب ولكنه فى كان .. خرج من العسكرية ليعمل مع والده فى أرضه الواسعة فى قرية أولاد سراج بمحافظة الدقرمية ..

شاكر ــ أنت تكثر فى الاجابة عن أشخاص لا يهمنى أعرفهم ..

سلامة ــ لا أبدا أنا أعطيك بعض التفصيلات ..

شاكر ــ يعنى ايه توجيه معنوى ..

سلامة ــ رفع معنويات الجنـود وحل مشاكلهم وتوزيع الصحف عليهم ومتابعة وجبات الطعـام اليومية لهم ثم بعض المحاضرات عن العدو والصهيونية والقومية ...

شاكر ــ ممتاز .. ممتاز ..

سلامة ــ ممتاز ..

شاكر ــ ما رأيك أن تستهن ذلك فى عسكريتنا ..

وراوغه سلامة قائلا ــ دعنى أفكر ..

وفى هـذه الليلة كان الوقت يقترب من العشرة واتفق شاكر أن يقابله مرة ثانية للحديث ..

ووصل شاكر حسون الى مبنى ضخم بأحد الأحياء الجديدة ليكتب بعض التقارير فى مكتبه هناك .. وكان معظمها عن حال أولاد كان فى العاصمة .. ولما انتهى عاد فى الصباح الى فندق آخر بالمدينة ليزاول عمله .. وشعر سلامة بضيق فى التنفس وانطلقت بين حاجبيه نظرة شاردة .. وتساءل .. هل أكون أفاقا كى أكون ناجحا .. ونزل ومشى فى شارع ضيق آخره كان الظلام حالكا والبيوت صـغيرة ومتفرقة لهـا أبواب صداه صنعت من حديد وصفيح وسـمع أصوات غريبة فارتعد جسده ودق قلبه خوفا .. واسـتدار ببقية رأس يحملها الى الخلف وتعثرت قدماه .. وكانت الأنوار ساطعة فى بعض جنبات الشارع وأمسك برقبته

ليدافع عنها وتقدم نحو الفندق وكأنه يستغيث بفراشه .. وفى الصباح خرج من نزله حزينا بائسا .. وتساءل هل يعود حقا الى بلاده .. ان الخوف فى هذه البلاد لشديد .. ولكنه قال .. فى هذه المدينة محلا يدر على ايرادا كبيرا ولا أستطيع الحصول عليه فى مدينتى .. وتطلع عبر نافذة الباص باصرار .. كانت عيناه حادتان ثاقبتان وكأنه وهب نفسه لأكثر من الخوف وراح يبكى كثيرا !! فاستراح قلبه قليلا من غضاضة شعر بها .. ونزل الى الشارع يضرب الارض بقدمه دلالة على أنه سيواصل الى النهاية .. لقد انتظر طويلا فى بلده وكان نصيبه صفرا .. وذهب الى المساجد يبحث عن النور .. فوجد نور الله لكن الناس اتهموه بالتطرف لأنه يؤدى كل صلاة فى المسجد .. فاستغاث برب السماء فأتهمه بالرحيل فكيف يعود .. .. وقال يحدث نفسه .. ياقاتل يامقتول .. هل هناك بعد الموت موت .. انها موته واحدة .. وصرخ لكنه صرخ الى تحت حتى لا يسمعه أحد .. وقرر وضع أفكار الرأس جانبا .. ان الناس يمرون الى البناء فى حياتهم حينما يتوافر عامل واحد من عوامل الحياة .. ان الناس تصرخ وتبحث عن أفكارها لأنهم لا يجدون الأعمال التى تنفجر فيها طاقاتهم .. وكرة أخرى كما يفعل حين تتصارع الحياة فى داخله .. انطلق يمشى بخطى ثابتة الى الأمام وأصر أن يملأ هذه الأمام قوة نحو الحياة .. وكفى صراخا .. مرة واحدة تكفى حين ولدته أمه ..

ووجد لطفى فى المحل يعد السمك وينظفه .. والمحل عادة يبدأ فى شى السمك عند العاشرة ويستقبل زبائنه فى الحادية عشرة حتى بعد المغرب بقليل .. واشتعلت النار وتقلب السمك عليها وتنفس المارة وأهل الحى رائحة الشواء فانكبوا كأرقال يلتهمون لحمه الطرى بأرغفة الخبز الساخن والسلاطة الملتهبة بقرون من الفلفل الأخضر .. وكان لطيف يقف على النصبة وسلامة يقدم طلبات الزبائن .. وكان أهل المدينة لا يعرفون كيف يأكلون السمك مثل الكانيين .. يتركون اللحم بين أشواكه ولا يجيدون امتصاص المخيخ من الرأس .. وفى كل يوم يجمع عبد اللطيف الرؤوس السمكية ويأخذها معه الى الفندق ليبيعها للكانيين بسعر رخيص .. وكان كل منهما يرتدى معطفا أبيضا .. فيتوهج وجه سلامة من نار الصاج ويتصبب العرق منه فتعلو سيماؤه بشىء من الخجل فتبرز عيناه فى وجه الزبائن .. وكان الكلام يخرج من فمه مبعثرا وقد أضيف الى كل كلمة حرفا مرحبا بزبائنه :

ـ مرحبا .. اتفضللوا .. اتفضلل ..

كان سلامة أقرب الى بائع الكشرى أو المهلبية وأطلق أحد الزبائن من كان على سلامة اسم ملهط وتعنى ملهط أن كلماته الحبلى بوجهه الأحمر بعينيه كالرجل الذى يلهط طبقا من المهلبية .. وكان سلامة يضحك من كل قلبه عندما يسمع هذا الاسم من زبائنه ..

ـ نص يا ملهط
ـ السلاطة يا ملهط
ـ واحد خبز يا ملهط
ـ سلام يا ملهط ..
ـ الشطه يا ملهط

وكان يطلق على عبد اللطيف .. المهيب .. كل شيء فيه غير مرتب وحوله نار ودخان وسمات وجهه القروية ولهجته ..

ـ اذيك يا معلم ..
ـ اشوى السمك أوى
ـ يا عبد اللطيف الغبرة ..

وكان يطلق على عبد اللطيف .. المهيب .. كل شيء فيه اليوم التالى الى سلامة بنصفه فيعطى لطفى أجره ويأخذ نصيبه ويذهب الى البنك لتحويله الى كان .. وكان الوقت يمر عليهما سريعا لكثرة العمل وحلاوة المكسب . وفى الأسبوع الواحد يحادث سلامة صاحبة المحل ليطمئنها على العمل مرة عادة أو مرتين .. وكان لطيف غير لطيف مع سلامة فلم يستطع مداراة حقده عليه وعادة كان يدور بينهما حديث آخر اليوم .. فيقول عبد اللطيف وكأنه يهزر :

ـ أيوه ياعم حد أدك
سلامة ـ ازاى ..

عبد اللطيف ـ أنا بقه لى خمس سنين هنا ما عرفتش واحده وانت زى النبل ..

سلامة ـ الصدفة وحدها ..

عبد اللطيف ـ يا عنيالك كل يوم .. كل يوم .. الصبح وبالليل ..

سلامة ـ انها زوجتى ..

عبد اللطيف ـ العب غير دى ..

ولم يبرز سلامة عقد الزواج لعبد اللطيف حتى لا يكون دافعا أكبر لأن يوشى به عند صاحبة البيت .. وكان سلامة يستعمل معه هذه العبارة دائما :

ـ على العموم هذه السيدة كانت السبب فى هذا المحل ..

عبد اللطيف ـ اذا كان ده روقها ..

سلامة ـ وهل يضيرك شىء ..

عبد اللطيف ـ لا .. لا ..

وفى ليلة من الليالى لم ينم عبد اللطيف ليلته ولازمه القلق حتى الصباح .. يفكر ويتدبر .. أحيانا ينوى أن يقدم فى سلامة تقريرا .. أو يذهب ويخبر صاحبة البيت .. وفى هذا الأمر الأخير قد تطرد المرأة سلامة ويكون هو الأول والأخير فى المحل .. لكنه كان يخاف اذا طردت سلامة أن تطرده هو الآخر فلا أفاد

ولا استفاد من هذا التصرف .. وقرر أن يؤجل الأمر فترة ..
.. كان صوت دائم يهمس فى داخل سلامة قائلا .. رغم أنى أشعر باطمئنان نحو هند فانى أجد فى الأمر غموضا .. فهل أخفقت قدمت نفسى لامرأة للحصول على رزق سهل .. وهل يرضى الله هذا الباب من الحياة .. أم أن ذلك تصرفا عاديا واستغلالا حسنا لامكانياتى كرجل .. ان الأمر يبدو مختلطا .. فأين طريقى .. وفى يوم قام وصلى الفجر ثم نام قليلا .. بعدها نزل الشارع وركب الباص الى المدينة الكبيرة .. كان شىء غريب يأخذه وكأنه يسمع صوت أمه ثم بح صوتها ونحبت وقال وكأنه يطمئنها :

ـ أنا بخير لا تحزنى يا أماه ..

وفى ليلة بعد المغرب بقليل التقت هند معه وكانت حزينة فقالت له :

ـ هل أنت نادم على شىء ..

سلامة ـ لا .. أفكر هل نحن على صواب ..

هند ـ ألم تتزوج ماذا تريد بعد .. سؤالى لك لأنى أراك دائما مهموما ..

سلامة ـ أحاسب نفسى دائما .. ان صوت أمى دائما يهمس فى أذنى وكأنه حزين على .. وشىء غريب يأخذنى الى تحت ..

هند ــ اعتبرنى مثل أمك .. تعالى ونام على صدرى .. ستجده مثل صدر أمك ..

سلامة ــ لا .. لا .. ليس هذا المقصود ..

هند ــ لا تجعل شيئا يأخذك الى تحت نحن نعيش ونرى المدينة جيدا نعيش فى النور ..

كنت امرأة ضيقة الأفق وبزواجى منك أصبحت الدنيا كلها رحابا واسعا تضمنى اليها .. لم أكن أعرف أى معنى للسرأة ومنذ علاقتى بك عرفت أى معنى كبير يضفيه رجل على امرأة تحبه وتريده ..

ولما خرجا كانت السماء قد أرخت مظلتها السوداء على أرض المدينة .. ولم تكن مصابيح الشوارع الا ضياءاً خافتا باهتاً على الجدران .. وكان ضوء المركبات أحمر اللون خانق يضغط على نفوس أصحابها بالعصبية وعيون المارة متردية بين الظلام والاضواء وفى يوم حادث سلامة صاحبة المحل فى الهاتف .. وطلبت منه أن يذهب اليها بعد العمل .. ولما ذهب لم تكن الخادمة هناك .. حيث ذهبت لتتسوق وفتحت ريما الباب ودخل مرتبكا ظانا أن عبد اللطيف يكون قد أخبرها بعلاقته بهند .. وتقدمته المرأة حتى صالة البيت .. ولما جلس قعدت قبالته وحاولت أن تبتسم ابتسامة صغيرة .. ارتسمت على شفتيها فى حزن .. لم تكن تلك السيدة التى قابلها من قبل .. ترتدى

ثوبا طويلا وتتلفح بشال كحلى وتضم يديها على صـدرها ..
هزلت السـيدة وشحب خداها واستطالت ذقنها نحو الأرض ..
وبدا عليها الحزن والألم وكان صـوتها مبحوحا متحفظه رزينة
وكأنها امرأة جديدة يلتقى بها لأول مرة وكانت يداها المتربعتان
على صـدرها تخفى خلفهما قلبا يخفق .. ومما زاد عذابها أن
زوجها أخبرها فى الرسالة التى وصلتها عصر اليوم .. أنه لا فائدة
من العلاج ولمـا سألها سلامة :

ـ كيف حالك يا سـيدتى ؟

فقالت له :

ـ زوجى مريض جـدا وسيعود بعد أيام دون أمل فى
علاجـه ..

سلامة ـ لا تقلقى ان الله سيشفيه ..

وولولت بصوتها وهى ترفع يدها الى أعلا :

ـ ياريت .. ياريت .. أنا أحزن نساء الدنيا .. كان لى
أمل فى شـفائه هذه المرة ..

سلامة ـ ان الشفاء قد يأت فى أى لحظة .. ليتنى أستطيع
أن أفعل لك شـيئا ..

ريما ـ لقد أرسلت لك لأطمئن على العمل .. وخابرنى
بعد ثلاثة أيام واذا أخبرتك بأن زوجى وصل تعال لتسلم عليه ..
انه رجل طيب وأريده أن يراك .. حتى يطمئن بأنى أعطيت ماله
لرجل طيب ..

سلامة ـ حاضر .. حاضر .. أشكرك على شعورك الطيب نحوى ..

ريما ـ هذه حقيبة .. هل أحضر لك طعاما ..

سلامة ـ شكرا لقد أكلت .

ريما ـ وكيف حال هند ..

سلامة ـ بخير اذا جاءتك فى الغد أخبرها بأنى أريدها فورا ..

ريما ـ والوالد الذى يعمل معك .. هل هو طيب وأمين ..

سلامة ـ نعم .. نعم .. نحمد الله .. . وحياها وانصرف وشدت على يده .. ولا أحد يدرى كم تشعر نحو هذا الرجل .. ان حجم شعورها نحوه كبير ولا تدرى ما سره .. ولم يمنعها من البوح به .. الا مرض زوجها وحزنها عليه .. لقد مضت أكثر من عشر سنين كلها ألم وكبت وانطواء .. وشعرت بأن قلبها يمتلأ بالحقد والكراهية نحو العالم من حولها .. وكانت تريد أن تقول لسلامة أكثر من ذلك ولكنها فضلت أن تكتم ذلك لأيام قادمة .. ورغم أنها كانت متشوقة لحضوره الا أن انفعالها هدأ بوجوده .. وأخذت الرسالة لتقرأها ثانية وثالثة وكانت عبارات بعينها تزيد من ألمها ودموعها.

ـ لو ابتعت كل ثروتى فلن أشفى من مرضى .. وان تكاليف العلاج باهظة .. أنا أعيش فى الحياة لمجرد وقت

ينتهى .. ان الالتهاب الرئوى الحاد والمزمن لا فائدة من علاجه .. لن أبقى فى الحياة كلها أكثر من شهور قليلة .. سأجد فى موتى الراحة الأبدية .. سأعود الى الله وألاقيه بقلب وعمل طيب .. ان ربى هو العزيز الحقيقى .. عندما أعود سأكتب وصيتى لك بكل أملاكى حتى لا يضايقك أحد من أقاربى يظهر بعد موتى .. أخبرى المحامى بذلك .. كنت أتمنى أن يكون لى طفل من صلبى أودعه عند الموت ويكون لك عوناً .. لقد تعبت كثيراً من أجلى وأنى أشعر بأنى أخصنى الموت .. عندما أعود لن أحدثك أبداً عن الموت لأنه سيكون قريباً منى .. هناك حديث آخر مع ربى .. رتبى وجهزى لموتى .. وأتمنى أن أعود وأراك قبل .. انتهت .. أمين .

وتطلعت الى ساعة الحائط مغمومة وأحست بقلبها يرتعش فهرولت الى فراشها وانكبت عليه .. وكلما حاولت التخفيف من حدة حزنها دخلت فى نوبة جديدة من النحيب .. وذات مساء جلست الى النافذة تتأمل السماء والأشجار العالية .. كانت ترى الحديقة كامرأة تتزين .. لكن راعيها تركها ولن يعود .. كالنهر الذى يجرى بين ضلفات الجبل .. وشردت أفكارها فى أهلها بالشمال وأمها وزوجها وسلامة وهند .. وشعرت أنها مهيضة الجناح وأنها لا شىء فى هذا العالم المترامى .. كل شىء فى هذا العالم اثنين الا هى .. ومن غير وعى منها قامت تتزين وفكرت فى هند .. لقد تغيبت عنها

كثيراً .. هل انشغلت بشيء .. وراحت تمسك بالهاتف ولم يرد عليها أحد .. انها تريد امرأة .. امرأة مثل هند .. أى امرأة جميلة .. انها لا تعرف أحداً غيرها .. وكان عليها أن تتخيل أى شيء من العنف .. أى شيء يجعلها تبكى بقوة .. فقامت تلوذ بفراشها تضرب المخدة بيديها ثم هدأت قليلا .. وران الصمت وامسكت برأسها قائلة :

ـ أنا ذاهبة الى الموت .. ليتنى أرحل من هذه الحياة .. ثم راحت فى النوم ..

وانهمك سلامة فى عمله وكان ينتظر من يوم لآخر أن تخبره هند بأن زوج ريما قد عاد .. ولما أخبرها برغبة ريما فى رؤيتها لم تبال بها .. ومرت أيام أخرى وهاتف السيدة ريما ليسألها عن عودة زوجها فأخبرته بأن ادارة المستشفى حادثتها بأنه سيعود خلال أيام .. وكررت عليه أن يخبر هند أن تتصل بها .. وانقطعت صلته بالسيدة ريما لمدة أسبوع آخر .. وكانت ربما تشعر بأن انقطاع هند عنها يخفى سراً لكنها نحت هذا جانبا فلقد كان انشغالها بزوجها وقلقها عليه أعظم من أى شيء آخر وكانت كل جوانب الحياة الأخرى حولها ما هى الا أحداث تافهة بجانب انشغالها بهذا الزوج النبيل ومرضه .. الا أن يأسها من شفائه أبلغها السقم وهد قواها ولم تعد تتذوق للطعام أى نكهة أو مذاق .. ولم تعد تتناول

منه الا القليل الذى يسد رمقها لتستطيع السير على قدميها ..
الا أنها فى يوم اتصلت بمنزل هنـد ..

ـ هالو ..

وردت عليها أمها ..

ـ هالو ..

ـ أنا ريما ..

ـ هلا ابنتى هـلا .. هـلا .. كيف حالك .. ما حال السيد أمين ؟

ريما ـ سيعود بعد أسبوع ..

ـ هل تم شـفاؤه ؟

ريما ـ لا ليس بعـد ..

ـ شفاه الله .. شفاه الله ..

ريما ـ أين هنـد ..

ـ تعود بعد المغرب كل يوم تقريباً ..

ريما ـ أما زالت تعمل مع الجماعة ..

ـ تقول ذلك .. تعود مهدودة القوى وحالها لا يعجبنى..

ريما ـ لمـاذا لا تتصل بى ؟

ـ انها لا تتصل بأحد يا ابنتى .. معذرة يا ابنتى ..

ريما ـ أريد الاطمئنان عليهـا .. ليتها تتصـل بى حين تعود ..

ـ سأخبرها .. الله معك .. الله معك ..

ريما ــ فى أمان الله ..

ولما عادت هند أخبرتها الأم .. لكنها لم تتصل بريما .. ومرت أيام أخرى وطالت بينهما القطيعة وفى مساء اليوم التالى وقبل أن تغادر لقاء سلامة .. ارتدت ملابسها وقالت فى حدة وهى تضرب السندرة بقدمها :

ــ ابنة الخالة خائبة المدينة سألت عنى بالأمس وتريد محادثتها ..

سلامة ــ من ابنة خالتك ..

هند ــ صاحبة المال والجاه والدكان ..

سلامة ــ اسألى عنها ..

هند ــ هل ذهب عبد اللطيف اليها ..

سلامة ــ لا أعرف .. ولماذا يذهب ؟

هند ــ أخاف من .. قد تعلم بأمر زواجنا منه فتهدم كل شىء فوق رأسينا ..

سلامة ــ هل تشعرين بالخطأ .. لماذا لم تأخذى رأيها فى أمرنا ..

هند ــ ليس خطأ بالمعنى .. وسكتت .. ثم أردفت ..

ــ أشاورها فى ماذا .. هى امرأة بلا زوج وقد لا يروق لها هذا الأمر خاصة وأننا نلتقى فى عقارها .

سلامة ــ لم أحسب لهذا الأمر حسابه .. أنا فى موقف

لا يحسب حساب أى شيء غير أن .. انني للأسف أريد حق الانتفاع فى أى وجهة أصبو اليها .

هند ـ هذه الواقعة ستكون المواجهة معها .

سلامة ـ أخشى النتيجة .

هند ـ هى ابنة الشمال ولن ترضى أن أنتصر عليها ..

وقام سلامة فزعاً وأكمل ارتداء ملابسه وقال وهو يمسكها من ردن قميصها :

ـ ان مطلبى من هذه المدينة هو المال وليس المرأة .

وأنزلت يده المتعلقة بها ونظرت اليه نظرة ثابتة وقالت بحدة :

ـ واذا كانت امرأة تؤدى الى المال فلا مانع من ذلك ..

سلامة ـ وأنا فى كل الأحوال لم أنزل أرض امرأة خفية أو بالسطو عليها أنا متزوج منك زواجاً متعارفا عليه فى المدينة .

هند ـ لا داعى لهذه المناقشات معك .. وعلى أية حال ان استمرار القطيعة ليس فى صالحى وسوف أذهب اليها عندما يعود زوجها .. وهزت رأسها كمن يتدبر أمراً ..

وحملت رأس عبد اللطيف ظنوناً وأفكاراً كثيرة .. وثقلت رأسه بالغيرة والحقد على سلامة وهند وشلل تفكيره كيف يوقع بهند فى تلابيبه وأن يضرب سلامة احدى ضربتين .. تقرير للمخابرات بكل شيء عن سلامة بأنه يعمل فى المخابرات الكانية مثلا أو .. و .. و .. أو أن يذهب الى السيدة

ريما ليخبرها بالعلاقة التى بين هند وسلامة وفى الحالتين يكون المحل من نصيبه وحده .. ومرت الأيام وصل خلالها زوج السيدة ريما وذهب سلامة اليه للاطمئنان عليه والسلام .. وقدمته ريما الى زوجها بأنه رجل أمين جعل المحل يدر مبلغاً كبيراً من المال نتيجة للمجهود الذى بذله فيه .. وكان الرجل ينام فى فراشه أو يلوذ به .. فوجهه النحل تبزغ منه عينين غائرتين ولم تكن اليد التى امتدت لتصافحه غير يد قط أليف تشابكت بها أصابع برزت نحيلة فى عظامها ولمعت .. يغوص الرجل فى فراشه ويكاد غطاؤه يلامس سطح مرقده ويستوى عليه لدرجة أن يظن المرء بأن لا أحد يرقد هنا البتة .. وبحث سلامة عن الرجل .. أين وجه الرجل .. فاذا به مثل لون البفته البيضاء وقعد الزائر دقائق وهو يتألم وخاف أن ينطق بكلمة تكون عبئاً على الرجل فى فراشه وقام يمد يده نحو الرجل مودعاً وقائلا :

ـ ألف سلامة عليك .. حمدا لله على سلامتك ..

ولم تمتد اليه أية يد ولم ينبس الرجل ببنت شفة .

الا أن السيدة ريما قالت بصوت خفيض أ

لقد نام .. نام .. اذهب الى الدور الأول . انتظرنى هناك ..

ولما نزل وجد رجلا يقعد فى الصالون المواجه للدرج واتجهت ندا الى سلامة قائلة :

ـ هذا محامى السيد أمين .. هل السيد بخير ..

سلامة ـ نعم انه بخير .. لقد نام ..

ونزلت ريما وتهالكت على أول مقعد بعد أن ألقت على المحامى التحية .. وقطب المحامى حاجبيه وقال :

ـ كيف حال الأستاذ .

ريما ـ الحالة ليست على ما يرام . وترقرق الدمع فى عينيها .. الحمد لله .. وأحنفه أن يسمع ذلك ورفع يده لأعلى متشفعا له بالدعاء والشفاء .

ريما ـ يا سيد جميل .. متوجهة بحديثها الى السيد المحامى .. انه نائم الآن ولن يستطيع أن يقابلك .. أيناسبك ان تأتى فى وقت آخر ..

المحامى ـ بعد ساعتين ..

ريما ـ موعد معقول يكون قد استيقظ وأفاق .

ومشيت معه ريما حتى باب البيت الداخلى .. وعادت الى سلامه قائلة بصوت مبحوح :

ـ لماذا تركت النقود فى المرة السابقة .

سلامة ـ أيراد المحل .

ريما ـ هل أخذت نصيبك ..

سلامة ـ لا ..

ريما ـ لك نصفها ..

سلامة ــ هذا كثير ..

ريما ــ لا ..

ودخلت غرفتها وعادت تحمل لفة نقود ورقيــة ووضعتها في يده .. وقالت قبل أن تقعد :

ــ لن أوصيك العنــاية بالمحــل .. وحادثني في الهاتف لتطمئنني كلما أمكن .. وقام سلامة وصــافحها وهز رأســه بالموافقة وعلى بذل المزيد من الجهد وانصرف وهو يدعو للسيد أمين ولها بالخير .

ولمــا علم عبد اللطيف بحضور زوج الســيدة ريما .. قرر أن يحادثها في الهاتف ثم يعلمها أنه يريدها في أمر هام .. وبدأ يلاطف هند وكانت تبتسم له مجاملة وتقول :

ــ قلبي معك انك تتعب كثيرا وفي حاجة الى الترفيه .

فيقول لها :

ــ ألا تعرفين امرأة أتزوجها .

وتضحك هند بصوت عال وتقول :

ــ أليك القدرة على ذلك ..

عبد اللطيف ــ بالطبع فأنا رجل أسود .

هند ــ كثير من الرجال السود في مدينتي مرضي بالنفوذ .

ويمضي كل منهما في سبيله وكان قلب هند يمتلىء بالغيظ منه لكنها كانت تفعل ذلك من أجل خاطر سلامة وصالح العمل

وأحياناً للعطف عليه .. وكان فى بيت هند رواق طويل به بعض الأعمدة القديمة المشيدة من الحجر . ووضع فيه سرير صغير وعدد من المقاعد القديمة .. وكلما عادت الى بيتها بعد لقاء سلامة امتدت فى فراش هذا الرواق قبل أن تدخل غرفتها وتتناول الطعام وتحتسى الشاى فيه .. وتتجاذب مع أسرتها الصغيرة أمها وطفلتها أطراف الحديث .. الا أنها فى الأيام الأخيرة اعتادت أن تنام فيه حتى الصباح .. وكانت نورا الطفلة تلوذ بأحضانها .. الا أنها كانت تضيق بها .. لقد كانت مشاعر الطفلة أكبر من مشاعر أمها .. وظلت مضطربة تفكر خاصة وأن معاملة سلامة لها أصبحت فاترة .. وفى ليلة من الليال دق جرس الهاتف وكان ذلك بعد منتصف الليل بقليل .. وهرولت اليه هند :

ـ هالو ..

ورد رجل على الجانب الآخر :

ـ السيدة هند موجودة .

هند ـ من أنت ..

الرجل ـ واحد يعرفك منذ سنين .

وكاد قلبها يتوقف لأنها لا تحب أناساً قدامى يتذكرونها وصمتت برهة فقال الرجل أ

ـ أهى أنت ..

هند ـ ماذا تريد منها ما اسمك ؟..

الرجل ــ كامل الدريعى ..

وتهالكت على المقعد وتدفقت أنفاسها فى صــدرها كمن تلهث وقالت متظاهرة بالكياســة :

ــ آهلا بك .. هلا .. أين أنت ..

كامل ــ فى البيت .. البيت الذى تعرفينه ..

هند ــ نسيت البيت ..

كامل ــ خذى عنوانى ثانية ..

حى المقرين الجديد .. شارع رقم ١٩ فيلا ١١٣ ..

هند ــ دون ان تكتب .. تذكرته .. تذكرته ..

كامل ــ أنتظرك فى الصباح ..

هند ــ فى الصباح صعب لقد تغيبت كثيرا عن العمل ..

كامل ــ لا يهم ستحدث مع الركيك جندراى .. وسوف لا يحسب لك اى غياب وسيكون غيابك لمدة عام قادمة مأمورية..

هند وهى متظاهره بالسعادة :

ــ هذا كثير شكرا يا سيدى ..

كامل ــ لا تتأخرى عن العاشرة ..

هند ــ حاضر سيدى .. حاضر ..

وفى الليل رأت أحلاما مفزعة تتوافد عليها وتدور حولها.. وكأن شيئا مخيفا يلتف على رقبتها ويضرب رأسها ــ ولما جاء الصباح كانت الرؤية مظلمة فقرص الشمس يختنق والضباب

يكسو الأرض .. ارتدت الثيـاب الفاخرة والملابس الداخليـة الحمراء وتزودت من العطر الذى يعشقه .. الا أنها وعنـدما أكملت زينتها شعرت أنها ترتدى ثياب الموت .. وقالت بصوت عال وهى تتهيأ فى المرآة :

ـ قالوا أن الجنس هو نصـف الحب .. والمرأة تعطى جسدها للرجل الذى تحبه .. وأنا أهتف لهـذا العالم .. أن فى هذه البلاد تعطى النساء جسـدها للرجـال بالأوامر .. بالتعليمات .. بالخوف .. بالقهر والقمع .. ألا توجـد أذن لهذا العالم .. أليس لهذا العالم ضمير .. أليس له قوة ترفع الظلم والبأس عن الضعفاء مثل الأطفال والنساء والشيوخ .. أيها العالم الحقير لأنك جبان تخاف من الأقوياء .. أقدم جسدى لرجل بعد آخر .. ان جسدى فى هذه البلاد ثمناً لحياتى .. والحرية أن أعيش وفق ما يريد هـذا البشر .. انهم يمنحون الحيـاة ويقدمون الموت .. ينحنى النـاس لكى تمر كلمـات الحاكم كالحذاء فوق الرؤوس .. رجال مرضى من حثالة العائلات صنعوا هذا العالم الوضيع الذى حولنا فى هذه البلدة .. انه عالم حقير وأعمى وأصم .. انه يسر فلا تسمع الا الكلمات السفلى والنعال .. وخرجت السيدة من بيتها تقصد بيت الركيك وهى التى نالت أوسمة ونياشين على وطنيتها وعملها المخلص فى الحزب وشعرت وهى فى الطريق الى رجل الحزب الكبير أنها فى الطريق أيضا لنيل أكبر وسـام فى الدولة اذا رضى عنها هذا الرجـل

فقط أو غيره من زملائه رجال الثورة الجهابيز .. وبكت بكاءاً مراً حتى أوصلتها العربة ميدان الحي وتعجب سائق الأجرة لدموعها وكاد يسالها لكنه تركها لشعوره بأنها لن ترد عليه بسبب انكفائها على أحزانها .. ولما نزلت لتمشي حتى البيت شعرت بأن أطفالا صغاراً يجرون وراءها ويقذفونها بألعن الألفاظ .. حتى وصلت الى الباب الذي وجدته مفتوحاً حيث شرعه الركيك منذ قليل ودخلت وهي تقطع المشي ببطء .. وسمع كامل وقع خطوات فجرى الدم في عروقه .. ومسحت وجهها وعينيها وفتح الباب الداخلي لها ودخلت وهي ترسم على محياها ابتسامة عريضة .. وهلل وأحتضنها .. قائلا :

ـ هلا .. هلا .. هلا بالجمال ..

وأخذها من يدها مصطنعاً الرقة .. أخذها وأقعدها في أحد المقاعد الكبيرة ووقعت ملاءتها فتركتها وقال مشجعاً :

ـ أتركيها .. أمازلت ترتدينها ..

ضحكت هند قائلة :

ـ أنا بنت القبيلة ..

كامل ـ لا .. أنت ابنة الثورة والحزب واتحاد النساء ..

واقترب منها وزاحمها المقعد وأخذ يحتضنها ثم قبلها وشدها اليه بقوة ووضع يده على ساقها يعربد فيها فقالت له :

ـ على مهلك أصابعك حارة ..

كامل ــ هل تشربين كأساً ..

هند ــ لا ..

كامل ــ أريدك سكرانة ..

هند ــ سأفعل لك ما يحدثه الكأس وأكثر ..

كامل ــ هذا هو المطلوب ..

هند ــ سؤال حزبى أجبنى عليه بصراحة ..

فأطرق لها أذنه .. ماذا .. قولى ..

هند ــ هناء رئيسة تنظيم أكبر أحياء انطاصمة فجأة .. لماذا ؟ وسناء وكيل التنظيم بالمدينة كلها .. لماذا كل هذا .. وأين أنا من هذه التعيينات ..

كامل ــ أكثر منك حركة .. أول ما فعلته هناء وسناء منذ سنين خلع العباءة وهى بنات قبائل مثلك .. أحدث ملابس الحرية والشياكة .. يذهبن الى أعلى القيادات ليقدمن أعمالهن وأول ما ينتهى الرجل من مقابلة العمل معهن تسأل الواحد منهم فى نعومة ورقة :

أتريد شيئا وأنا وأهلى تحت أمرك ..

.. هل تعلمين أن سناء قدمت ابنتها للركيك مسعود بمجرد أن شعرت بمرضه الشديد ولم تستطع أن تسرى عنه .. عرضت عليه .. هل أحضر لك ابنتى .. بنت الثامنة عشرة ربيعاً ولما وجدته يبتسم لعرضها .. مجرد ابتسامة ذهبت وأحضرت

له ابنتها .. ظلت معه أسبوعاً كاملا تلاطفه وتسامره بعدها شفى الركيك .. ومن ثم كان تعيينها وكيل التنظيم بالعاصمة .. أما ابنتها فستدخل كلية الطب وسوف يكون لها بلا شك مركز مرموق وكل ذلك مرهون باستمرار العطاء ..

هند ــ أليس من الواجب أن يكون للمرأة قليل من الحياء ..

كامل ــ أى حياء للمرأة تقصدين .. هل عرفت لماذا تأخرت فى التقدم نحو هذه الترقيات العالية .. أنت عضوة عادية غير نشيطة لا تذهبين الى أحد الا اذا طلبك ونحن جميعاً نحب المرأة التى تعطى بسخاء .. يجب أن تكون امرأة الحزب والتنظيم مثلا لكل النساء وعليه بعد ذلك تسلك كل فتيات ونساء المجتمع وهذا هو المستهدف .. أنت وأمثالك يا هند تعطلين مسيرة الحزب التقدمية نحو الرخاء والازدهار .. ان ذلك هو الازدهار الاجتماعى الحقيقى الذى نصبو اليه ..

هند ــ ولكنى قدمت الكثير فى أول عهدى ..

كامل ــ أى كثير هذا .. نحن الذين نقدر .. أين تقاريرك .. هل توقف الناس عن الكلام .. أين اتصالاتك بالكانيين .. والبيوت من الداخل ..

هند ــ الكانيون قابعون فى شقائهم لا يعرفون غير العمل والناس جميعاً ممتنون بالسيد الرئيس ويهتفون بحياته .. الأوضاع مستقرة .. ماذا أفعل ..

الركيك تعنى الرفيق .

وسادت فترة صمت ذهب خلالها الرجل الى الحمام ..
وشعرت هند بأنها يجب أن تعطى الرجل حتى يرضى عنها ولما دخل فى الفراش تبعته وهى تخلع ملابسها ولما استقرت بجواره ضربها على وجهها بيده مرة وتلتها أخرى .. وتركته يضربها على رأسها وصدرها كما تعود أن يفعل قبل اللقاء ولما انتهى من ضربه زعق قائلا :

ـ قومى يا قحبه خلف الستار وأكملى خلع ملابسك ..

وهرولت خلف القماش الشفاف ورمت ببقية ملابسها على الأرض دون السوتيان والسروال .. وبدأ يلهث ويحدث صوتاً كصوت البهائم عندما ترى العلق أو البرسيم .. وناداها بصوت عال :

ـ الصدرية .. السروال .. الصدرية .. السروال

وقالت هند لتقطع جنونه :

ـ هل آت ..

كامل ـ ارتدى الصدرية .. والسروال .. اخلعى .. ارتدى ..

.. حتى فعلتها خمس مرات ..

بعدها نادى بصوت مبحوح كأنه يبكى ..

ـ تعال .. تعال ..

وسترت بيديها عورتها وتقدمت نحوه ولما كان صدرها يتدلى أمامها دون أن تتحكم فيه أمسك به بشدة مما جعلها

تصرخ .. وضربها على فخذها وصرخت ثانية محاولة ارضاء غروره وصلفه .. وجأر قائلا وهو يشدها الى الفراش :

ـ لقد كانت أمى قحبة مثلك ..

ولفت ذراعها حوله قائلة :

ـ لا أمك لا ..

الرجل ـ لقد رأيت أمى بعينى يفعل بها أولاد صغار .. أولاد صاحب البيت الذى كانت تعمل فيه ..

هند ـ ولماذا فعلت أمك هذا ..

قال والشيطانيا تلعب برأسه :

ـ لم يكن لنا بيت وأقامت أمى بيتاً من جيوب هؤلاء الصغار .. كان أبى يعمل بائعاً للعرقسوس فى حى الدواسة القديم وكنا نقيم فى أحد البيوت العتيقة لأحد التجار الأغنياء الذى شيد فندقاً عليه بعد هدمه .. وأثناء اقامتنا فى خيمة بجواره حتى نجد مأوى مات أبى .. وتركنا بلا بيت .. وواصلت أمى الكفاح بعده .. أخذتنى أمى الى بيت هذا الرجل الغنى فى حى المنصور وكنت فى حينها ابن التاسعة .. وكنت أرى كل شىء .. صاحب البيت مع أمى .. الخادم الكبير مع أمى .. وأخيراً الصبية الصغار عندما كبروا مع أمى .. وفى الخامسة عشرة شيدت لنا أمى بيتاً صغيراً .. ولما جاءت الثورة المباركة .. كنت بلا هوية .. بلا عائلة ..

بلا .. بلا .. وكان الحزب ملاذى .. ملاذ كل الفقراء والمساكين مثلى .. ملجأ لكل أولاد الأمهات مثل أمى ..

هند ـ وهل أخذت بثأرك من أصحاب البيت الكبير الذى عشت فيه ..

كامل ـ أكثر من عشرين بيتاً كبيراً أخذت بثأرى منهم .. منهم جميعا .. تقاريرى كانت شاملة وتفصيلية ...

هند ـ وماذا فعلت أمك بعد ذلك ..

كامل ـ كرمها الحزب واعتبرت أماً مثالية فى عام .. لأنها ولدتنى .. أنجبت للثورة المجيدة أحد أبنائها ..

هند ـ ولما ماتت ماذا فعلوا ..

كامل ـ وحياتك دفنت فى مقابر الشهداء ..

هند ـ وهل عملوا لها سجلا ..

كامل ـ فى سجل أمهات الأبطال ..

هند ـ انها احدى أمهات العروبة يا سيدى ..

كامل ـ من هنا خلق النظام كيانه وأسواره ..

هند ـ تقصد النظام صنع ..

كامل ـ النظام خلق .. نظامنا خلاق .. انا البعث .. نبعث الحياة من جديد .. ومرة أخرى خيم الصمت والتقى بالمرأة وهو يجأر ولو أن واحداً بالحديقة لظن أن فى داخل البيت حماراً ينهق .

وذهبت هند الى الحمام ثم جاءته وقامت معه وفعل بها من دبر .. وتمنت أن تموت قبل أن تقوم وترتدى ملابسها .. ارتمى بعدها على بطنه يغط فى نومه ويشخر .. وارتدت المرأة ملابسها والأحزان ترمى بها من كل جانب .. فهذا الرجل هو أول من آتى بها من دبر وهو الذى هتك عرضها .. فكيف لا تجعل نهايته بيدها .. انها تستطيع أن تقضى عليه الآن .. وذهبت المطبخ تبحث عن سكين أو آلة حادة فلم تجد وكانت تصرخ من الألم وفكرت أن تقتل نفسها بعد أن تنتهى منه .. ولو هدأت أعصابها قليلا لوجدت شيئاً تقتله به .. لكنها كانت خائفة واهنة .. ولم تستطع أن تبحث فى الحديقة أو فى غرف أخرى أو تفتح أحد أدراج المطبخ ..

وخرجت الى بيت أمها وفتحت لها الصغيرة وهرولت فى الرواق وهى تصرخ ثم وقعت بالأرض وارتطمت فى أحد المقاعد .. وارتمت عليها الطفلة والأم الكبيرة التى هالها الصراخ وحملتها الأم الى غرفتها .. وعند المغرب بعد تناولها الطعام اعترفت لأمها بأحداثها .. وكانت الأم تتجه نحو الصالة لتصرخ وتولول قائلة :

ـ يا للعار ياللعار .. العار لن يترك بيتنا ما حييت يا هند

وترد عليها هند :

ـ سوف أريحك يا أماه .. أين أبى ليقتلنى ..

الأم وهى تروح وتعود وقد فتحت قميص صدرها تضرب عليه مرة وعلى رأسها أخرى :

ـ أبوك يتاجر .. يجمع المـال .. التجارة الحرام .. ألا يسمعنى أى أب على كل أب وأم أن يتاجرا فى أبنائهما .. ان التجارة الحلال هو تربية الأولاد والبنات وتأديبهم وتعليمهم الشجاعة والجرأة ومعالجة الأمور بالحزم .. وأنه فى أمور يجب على المرأة تفضيل الموت عن الحياة فى خزى وعار .. ان رجالا كثيرين وأمهات يتاجرون فى الحرام .. ان مراقبة البنات والعطف عليهن ومداراتهن أفضل تجارة فى هـذا العالم .. لقد خسرنا حياتنا بتركنا هند .. خسرت حياتى من أولها لآخرها ..

وتسمعها هند وتبكى وتضرب بيديها الفراش قائلة أ
ـ أين أبى ليقتلنى ..

وفكرت فى أن تتناول مدية وتخرخ من البيت لتعطيها لأى رجل أو امرأة لتغرسها فى صدرها .. وقامت تجرى وسـط البيت تبحث عن شىء صلب ولحقتها أمها تضربها وتبصـق فى وجهها .. وارتمت هند وسـط البيت تضرب الأرض بقدميها ويديها بعنف وارتمت الطفلة فوقها تثنيها عن أفعالها .. وقالت لها الجدة :

ـ أتركيها تفعل ..

الطفلة ـ أى عار لحق بأمى يا جدتى .. أى عار ..

الجدة ــ آنا وزوجى سبب العار يا طفلتى ..

وفغر فاه الطفلة :

ــ ماذا .. ماذا ..

وأحتضنتها الجدة وذهبت بها الى صنبور المياه لتغسل وجهها ونظرت الى سقف البيت .. أنت المستقبل الوحيد .. اذا كان هناك مستقبل ..

.. الطفلة وهى تمسك برأس جدتها :

ــ تقصدين المدرسة يا جدتى ..

الجدة ــ لن تذهبى الى المدرسة أبداً ..

الطفلة ــ ومن يعلمنى القراءة والكتابة ..

الجدة ــ سنأتى لك بمدرسة فى البيت .. هناك سيأخذ .. هناك يأخذون الفتيات الصغيرات الى جهنم ..

الطفلة ــ صحيح يا جدتى .. فى كل المدارس ..

الجدة ــ فى مدارس هذه المدينة فقط .. الخروج من البيت عار يا ابنتى .. وأخذتها الى فراشها تربت عليها وتقبلها فى يديها وجبينها ..

وشردت الطفلة فى كلام جدتها .. هناك يأخذون الفتيات الصغيرات الى جهنم .. الى جهنم .. كيف .. وراحت فى النعاس ..

وفى بيت السيدة ريما كان السيد أمين قد حصل من

المحامى على وصيته مسجلة وموثقة باسم زوجته واحتفظت بها سيدة البيت فى درج بالمكتبة .. وبناءاً على طلب صاحب الدار انتقل الى الطابق الأرضى فى غرفة صغيرة للنوم تطل على الحديقة من الخلف .. وكانت السيدة ريما تنام بجواره طول الليل والنهار .. تعالجه .. تمسح على جبينه .. تحتضنه .. تتحدث معه فى الحياة والدين والله والأرض والناس ودولة عباس حديث طيب وهادىء لا ينتهى .. الا أن السيد أمين كان دائم الحديث عن الموت والذل والهوان فى هذه المدينة .. وفى صباح أحد الأيام استيقظ فى الفجر وأمسك بكتف زوجه وقال :

ـ ريما .. حبيبتى ..
وانقلبت نحوه أ
ـ نعم يا أمين .. نعم .. هل تريد شيئاً ؟
أمين ـ قومى الى الصلاة .. قومى الى الصلاة ..
ريما ـ هل صليت ..
أمين ـ احضرى الماء الدافىء ..

وأحضرت له الماء فتطهر وتوضأ وذهبت تتوضأ ثم عادت لتجده يصلى سنة الرسول وهو يضطجع على فراشه .. وأقامت الزوجة الصلاة وقامت بدور الامام وهو يصلى فى فراشه .. قرأت بصوت عال وأدت صلاتها تؤم رجلها المريض على خير ما يرام .. وناولته كتاب الله وأخذ يقرأ .. قرأ اليوم

أكثر من أى يوم آخر .. ولما انتهى وضع الكتاب على صدره وأغمض عينيه وهمست شفتاه بالدعاء والرحمة ..

وأخذته فى أحضانها تلفه فى الغطاء برقة وأدب وأحتضنها بذراعه التى لفها حول جسدها وقالت له :

ـ أشعر بالأمان فى أحضانك ..

أمين ـ بل أنا ..

ريما ـ لا انى أشعر أكثر ..

أمين ـ وأنا ..

وقام قليلا ووضع رأسه على صدرها وأخذت تنفخ فى شعره .. كان مثل كودية قش أو عودين من القصب يمتدان بجوارها ولما قالت له لا تغرب وجهك عنى ..

قال وهو يربت على بطنها :

ـ أنفاس ساخنة .. أشفق عليك من ضمور وجهى ..

ريما ـ لكنى أجد فيه أجمل وجه فى الدنيا ..

أمين ـ أنت زوجة مؤدبة وتجامليني وتداعبني برقة وخلق.

ريما ـ وهل هذا الا بعض أدبك وأخلاقك .. لكن صدقنى أنا فخورة بك فأنت نعم الرجل والزوج والانسان ..

أمين ـ دعينى أقبل يدك .. وقبل يدها التى كان يمسكها فى يده .. قبل أصابعها واحد واحداً .. ولما انتهى قامت الزوجة وأمسكت بقدميه وأخذت تقبلهما برقة وبعنف وهى

تجهش بالبكاء حيث ملأت الدموع عينيها .. تقبل تلك العظام البارزة فى معصم قدميه .. وبكى أمين من صدق واخلاص وأمانة زوجته .. بكى كما لم يبك من قبل .. وراح الاثنان فى نوبة من البكاء والألم .. ولما انقضت نصف ساعة . أغمضت جفنيها وقد تمثل عرسهما الجميل وحفلته الرائعة والجمع الهائل من الناس الذين حضروا هذه الليلة .. أين هؤلاء منا اليوم ولماذا حضروا وكيف تفرقوا .. الا أن السنين قد مضت وأصبحت الذكرى أى ذكرى قد عبث بها النسيان وتداخلت الأحداث أمام عينيها وحفلت وارتفع صوتها .. سبحان من جعل الأيام تنقضى ولم يبق فى حياتى الا الدموع والحزن والألم .. ولما شعرت بأن حركة أمين قد سكنت قامت متكئة على حافة السرير وكان النهار شديد البياض زاهياً ورذاذ من الندى يتساقط على ورق الحديقة .. فراحت الى الشباك تستنشق الهواء البارد وأذناها تسمعان كلمات أمين ومر بعض الوقت فغلبها الكرى .. وتمشت فى البيت بعد أن اطمأنت على نومه ونزلت الحديقة رغم شعورها بالبرد وامتدت يدها الى بعض الورود تقطفها وتشمها ثم ترمى بها .

وصعدت الى الطابق الثانى لترى أن جو الغرف موحش ولأول مرة تشعر بهذا الشعور وتهيأ لها أنها خالية من الأثاث وكانت ستائر القماش الثقيلة تتطاير من شدة الهواء وتساءلت أليس لها أن تقوم بترتيب البيت ليكون على نحو أفضل ..

ولم تجد راحة فيما تفعله أو تفكر فيه .. وهرولت الى زوجها بعد أن قفلت كل نوافذ البيت عدا شباك الغرفة الصغيرة .. فوجدت المتعة الكبيرة بجواره .. وجدته مستيقظا يتأمل نور الشمس الذى بزغ فجأة .. كانت عيناه تتيهان عبر الآفاق البعيدة نحو السماء وشعرت بحاجتها للحديث معه الا أنها وجدت أن تتركه يتأمل لعله يجد فى الأفق شيئاً يريح نفسه .. غير أنه قاطعها قائلا :

ـ ألا ترين أنى بخير اليوم .. مثل أى طفل يتصرف مع أمه ..

ريما ـ ان صدرى الذى نمت عليه لن يقل حنانا عن صدر أمك ..

أمين ـ منذ عودتى وأنا أريد أن أفعل .. وخفت أن تضجرى فنى .. غير انى لم أستطع مقاومة هذا الوداع .. هذا الحنين اليك ..

انحنت عليه وقالت :

ـ أى وداع يا أمين .. أنت بخير ..

أمين ـ لابد من الوداع .. كنت أتمنى أن يكون لى ولد أو بنت يخلفنى ويودعنى معك .. أترك هذه الدنيا وليس لى فيها شىء .. الا أنت صبرت وتحملت من أجلى ولم أعطك أى شىء..

ريما ـ استغفر الله ومن له فيها شىء .. ان الأبناء لا يفعلون لأهليهم شيئاً فى الحياة أو بعد الموت .

أمين ــ انها الحياة .. متعلقات الحيـاة .. شـعورى وحاجتى كانسـان ..

ريما ــ هـذا قدرنا .. لكن نصيبنا من الايمان والصبر أكبر ..

أمين ــ صحيح الايمان هو زادى الحقيقى .. أما الصبر فماذا أفعل غيره .. ولولا الايمان ما كان الصبر ..

ريما ــ ما هو الفرق بيننا وبين الناس قليلى الايمان .. ان زاد الدنيا قليل حتى ولو كان تاجاً من ذهب .. صدقنى .. الايمان هو السـعادة الحقيقية .. هـو العمـار الحقيقى بين الانسان وربه ..

أمين ــ انى أرى النور من منامى يلتف حولى وينير لى طريقاً جديداً ..

ريما ــ هذا هو عملك .. ان جهادك فى سـبيل الحـق والعدالة سـيكون له عند الله جزاء ..

أمين ــ لقد تعذبت فى المعتقل عذاباً لم ينله أحـد .. أى انسانية مشـينة على هـذه الأرض التى تعلق المشـانق للناس الذين يطالبون بالحرية والعدالة .. أنا حزين على كل جاكم ينكل بالناس .. والله انها انسانية حزينة ..

ريما ــ نحن فى حاجة الى من يحزن علينا .. ان الانسانية وانشغالك بها جلبت لك الاعتقال والتعذيب ومن ثم المرض ..

أمين ــ من كان له شرف هذا النضال قد شيد جزءاً من السور الرفيع المنيع ضد البغى والضلال .. انه رمز المبادىء الباقية والتى لها قوة السحر .. وتنهد بصعوبة وهو يكظم غيظه وأردف يقول :

ــ كثيرون ماتوا فى المعتقل والذين خرجوا شبه أحياء مثلى ليرانا الناس رمزاً للخوف والقمع .. فأنا تجسيد لمن وقف يقول كلمة أو يطالب بحق .. هذا هو .. كما يقولون شبح انسان يتحرك .. ميت حى .. فى دكان قصاب المدينة ..

ريما ــ حياتك كلها معاناة حتى الأهل والأقارب لا يأتون لزيارتنا ..

أمين ــ أرى طاقة من النور تنبعث على مساحة واسعة فى الأرض الخضراء وأرانى أمشى فيها ومعى آخرون أتذكر أنى رأيتهم .. وخلفى فى الأمد البعيد مساحة شاسعة من العفن والوحل ..

ريما ــ انها الرحمة .. انها الرحمة مع القليل من الناس وتترك هذا المجتمع الفاقد لكل المعانى النبيلة .. اذا كان النظام الحاكم يقود الناس الى المحرقة .. الى الظلام والفساد والكفر .. فلماذا لا يتقرب الناس من بعضهم البعض .. هل أصبح الناس فى هذه المدينة يخافون من أهليهم وأصدقائهم وعشيرتهم ..

أمين ــ ان هـذا النظام يقتل المودة والحب والسلام بين الناس وانه ينزعج عندما يرى الحب بين الناس .. ان فى ودهم قوة وفى انفصالهم ضعف .. انه يريد أن يواجههم وهم فرادى متفرقين .. واذا اجتمعوا كان لهم اتجاه مخالف .. اتجاه أخلاقى أدبى .. فكرى .. لكن بتفرقهم وخوفهم من بعض هـذه هى المجتمعات الستليغة للحروب العظيم ..

ريما ــ قالت لى احدى السيدات منذ سنوات عندما كنت فى زيارة أمى بالشمال .. ان هـذا النظام يقدم للناس موتا جافا بدون كفن .. انه الهلاك فى سلمه والهلاك فى حربه .. كل وجه له هلاك .. انه الهلاك فى أوله وآخره .

أمين ــ ان بصرى بدأ يهلك .. وقلبى يدق فى وهن شديد .. والدماء شحيحة فى عروقى .. حتى الأفكار ذهبت عن رأسى .. وأمسك برأسه قائلا : أين رأسى .. اللعنة على الماضى والحاضر والمستقبل .. ان كل انسان يولد فى هـذه البلد محكوم عليه بالاعدام .. انها السجن الكبير بلا أسوار .. وكانت مجلدات وكتب ومصاحف تملأ الرفوف الخشبية فى ذلك البيت قد حرقت .. آلاف الكتب القيمة .. ورثها عن أبيه .. أنها بالنسبة للنظام خطر .. وانها اتجاه ضد الوطنية والثورية والبعث .. لقد أحرقت جميعها فى حديقة هـذا البيت .. وتركته ريما الى الخادمة ندا لتبلغها بتجهيز طعام الفطور وأخذت على عاتقها هـذا اليوم تجهيز الطعام وستعدت ندا بذلك ..

وحملت السيدة ريما المائدة الى السيد أمين .. ومر اليوم بعد ذلك بين النوم واليقظة .. ولما جاء المساء شربا عصير الليمون الذى أعدته ندا وجلست قبالته تشبع شوقه فى الحديث عن الماضى وقال الرجل مبتسماً :

ـ انى أرى العالم كله فى بسمة ثغرك .

وخفق قلبها وذهبت نحوه تطبع قبله دافئة على جبينه ثم عادت وجلست مرة أخرى قبالته .. وقال لها :

ـ دعينى أذكر لك بعض الماضى البغيض ..

ريما ـ أنا جد مصغية فى سماعك حتى الصباح .. والله ان حديثك الى أعتبره قيثارة حياتى ومخزونها الذى لا ينفد .

أمين ـ حين يموت حمار يأتى طبيب الحى ليقدم تقريره عن موته .. روح الحيوان وموته غالية جدا .. فما بالك .. والأنظمة المنحطة التى تزهق روح البشر بأيديها .. ان حكومات تبعث بنعوش للحمار لتدفنه .. فرق كبير بين القيم واللاقيم .. الحضارة والحظائر .

ريما مندهشة : وهل هناك نعوش للحمير ..

أمين ـ نعم يلفونه فى قماش ويضعونه على بقالة خشبية نظيفة ويأتون بعربة لنقله الى قبره .. يازوجتى فى معتقل السادة سلخت من بطانية قذرة مهلهلة أفرشها على البلاط وأتغطى بها بعض الخيوط وعقدتها مسبحة .. فلم أجد من سبيل الا تسبيح الله واستغفاره لانقاذى من الذل والهوان الذى وقعت فيه ..

وكنا فى كل أسبوع نخرج فى طابور للرياضة ونجرى فى أحد الفتحات المصنوعة فى السجن الكبير نجرى فيها فى شكل دائرة على أرض مليئة بالحصى والزلط حتى تدمى أقدامنا وزبانية السجن خلفنا بالكرابيج والعصى يضربون كل من تفادى الحصى أو تقاعص عن الركض ولم يكن أحد يسمع غير الصياح وجأر الألم وكلما صاح السجناء نزلوا عليهم بسياطهم المبرحة فوق ظهورهم ورؤوسهم .. وكانت المسبحة تتعلق بين أصابعى ونسيت نفسى وأنده بصوت عال .. سبحان الله .. يارب .. يارب .. يامغيث أغثنا .. ولم يكن يسمعنى أحد من حكمدارية السجن .. كان صوت الطراخ والصياح والألم أقوى من صوتى .. لكن الله كان يرى ويسمع الجميع .. الا أن أحد الزبانية رأى المسبحة فى يدى .. فتقدم نحوى وأشبعنى لكما وبصق فى وجهى مرات وأوقفوا مسيرة الخرفان ليشاهدوا كيف يضرب من أمسك مسبحة فى هذا المكان وذكر الله .. قام ثلاثة بضربى بعصى غليظة ووضع أحدهم خابورا فى مؤخرتى وهنا صاح المعتقلون جميعا يالله .. يالله .. وأمر قائد الطابور بطابور آخر جزاءا لهتافهم بهذه الكلمة .. وكان طابور الموت وارتميت وسط المجزرة مغشيا على وكانوا يأمرون الخرفان المذبوحة بالمرور فوقى ووقع الكثيرون بجانبى يتأوهون واعتقد بعضهم بأنى فارقت الحياة .. ونادى أحدهم .. يا أولاد القـ .. من يمسك بمسبحة بعد اليوم سوف يرى أمه هنا نفعل بها جميعا .. وطوح بعصاه فى الهواء ثم أمسكها .. وجأر يقول فى انفعال :

ـ ليس هناك الله .. أى اله تدعون .. لن تروا الشمس حتى تلقون بالهكم هـذا على قارعة الطريق المؤدى الى دورة المياه .. وقال آخر :

ـ الله هو عباس الهكم والهنا جميعا .. ياخونة .. يطعمنا ويسقينا ويصبحنا ويمسينا .. وتلاقت نظرات الموتى .. كانوا جميعا يقولون فى صمت .. ـ حسبنا الله ونعم الوكيل ..

وأخذت ريما تهز رأسها وتشير اليه بيدها أن يهدأ .. وكانت تشعر بضربات قلبه تدق بسرعة الا أنها اقتربت منه وانعنت عليه والزفرات تملأ خديها تهدأ من روعه وانفعاله .. الا أنه أمسك بكتفها وقال :

أتقدم بشكواى وكل معتقلين العالم الصغير الى الله .. أن ينتقم والا يمهلهم أكثر من ذلك .. ان كل الأطفال والنساء والشيوخ والنبلاء دخلوا معتقل عباس .. المخرج ياربى .. المخرج يا الهى ..

وقالت ريما وهى تعدل الغطاء حوله :

أعرف أنهم يسحقون البشر ويخرسون الأفواه بكلمات الخق .. يهتكون الأعراض .. يسعون فى الأرض فسادا .. جعلوا من أنفسهم آلهة وهم أحقر أنواع البشر .. الذين ظلموا وأحرقوا قرى بكاملها .. أطفالها ونسائها ورجالها بالغازات والسموم .. ان الانسانية كلها تعرف ذلك ولكن أين ضمير

هـذه الانسانية .. قبلوا بيوت العـالم الصالح والأمين .. وفتحوا بيوت اللصوص والسفلة .. جعلوا من الجرابيع سادة وأصبح السادة يخافون من الهواء ومن مياه الأنهار ومن أوراق الشجر .. يخافون من جدران بيوتهم وشراشف أسرتهم ..

وأمست الدنيا قاسية على بيت السيد أمين .. وقبل أن يروح في النوم سقته الماء وراقبته حتى استغرق في النوم .. كان يتنفس بصعوبة وعنقه النحيل يكاد يقع من الوهن .. وعيناه الذابلتان غائرتان في وجهه ..

وأمضى في النوم ساعة بعدها نادى ريما التي كانت ترقد بجواره .. وأمسكت صدره بيدها قائلة :

ـ نعم ياأمين ألم تكن نائما .. هل آت لك بالطعام ..

أمين ـ لا .. ليس الآن .. أقول لك كلمات أخيرة .. أنها وصيتي حين أموت .. أن مقابر جدي من أبي في الشمال .. انها في المدينة التي تعيش فيها أمك .. هل تتذكرينها لقد ذهبنا معا لزيارته منذ سنين ..

ريما وهي تحاول اسكاته :

ـ أعرفها .. أعرفها يا أمين .. أرجوك كفى ..

أمين ـ ان مقابر أبي هنا .. لكن راحتي في الشمال .. ان أقدامهم هنا ثقيلة وأخاف أن تداس مقبرتي بعد الموت بأقدامهم .. ان دور الموتى قادم عند هؤلاء .. عندما ينتهون

من الأحياء .. سيذهبون الى الموتى لينكلوا بهم .. ان الشمال يخيفهم لا يستطيعون أن يدوسوا الأحياء وكذلك الموتى .. انهم فقط يضربون الشمال بالطائرات .. اذهبى الى الشمال بعد موتى .. قومى ببيع كل ما تملكه واذهبى الى الشمال عند أمك لترعاك .. وحيث بعض الأمان ..

وذهب الرجل فى النوم .. بعدها قامت ريما لتحضر الطعام .. ولما عادت تحمله اليه وجدته يشخر ويشهق فألقت بالطعام على الأرض وأسرعت نحوه تعدل من رأسه ورقبته الا أنه زعق مرتين وفى الثالثة كان كان يرمى شيئا من فمه .. بعدها كان السيد أمين بلا حراك ولا روح فيه .. لقد صعدت الروح الى بارئها .. وعلى السيدة ريما أن تفعل بالجسد كما أوصاها .. وصرخت السيدة من أعماقها وارتمت عليه . وهرولت السيدة ندا وارتمت على فراشه تصرخ وتولول .. وفى منتصف الليل كانت عربة الموتى تتجه الى الشمال وصاحبة البيت وندا تصحبان الرجل العزيز فى صندوق العربة الكبير الى مثواه ..

وفى الجانب الآخر من الحياة .. حيث قضى الركيك كامل عدة أيام أخرى فى المدينة .. حيث الاحتفالات التى جاء من أجلها بدعوة من رئاسة الحزب .. ولم يتورع فى اليوم قبل الأخير فى المدينة أن يطلب سيده من سيدات المجتمع المهان :

ـ هالو

ـ هالو

كامل ــ السيد رياض موجود .

السيدة ــ فى مأمورية بالشمال .. من أنت ..

كامل ــ كامل الدريعى .. أتعرفيننى .

السيدة ــ أسمع عنك .. هلا . بيك ..

كامل ــ لماذا ذهب الى الشمال .

السيدة ــ تمرد الأكراد بأحد الجبال ..

كامل ــ سيدة نادرة حقا لم تقولى لماذا ذهب الا بعد أن تأكدت من أنى الركيك ..

السيدة ــ طبعا ياسيدى .. نحن أمناء ..

كامل ــ هل حصل السيد رياض على قطعة أرض بحى الميدان ..

السيدة ــ لا .. أين هذه الأرض ..

كامل ــ فى مدخل المدينة من الشرق .

السيدة ــ كيف نحصل على قطعة منها ..

كامل ــ خطاب منى للمسئول يتم الحجز فورا ..

السيدة ــ هل هناك شروط للتملك ..

كامل ــ الشروط أن تأخذى منى خطابا للمسئول ..

السيدة ــ منك ..

كامل ــ الليلة ..

السيدة ــ أين ..

كامل ـ تعال الى البيت ..

السيدة ـ كيف ؟

كامل ـ هل أنت صغيرة على المجيء .. أنت زوجة رياض وأخت عزيزة علينا ..

السيدة ـ أليس من الأفضل وجود رياض ..

كامل ـ يا سيدة فايزة أنت كبيرة ـ مثقفة واجبة تقديمية .. أجمل سيدات العاصمة ترفض أن تأتى لتحصل على قطعة أرض مجاناً .. ماذا أنت أنا لا أصدق ..

السيدة ـ أليس هناك مكان آخر غير البيت .

كامل ـ فى الصباح الباكر أسافر الى الجنوب ..

فايزة ـ صعب على لم أذهب أبدا الى رجل وجده ..

كامل ـ أنت حرة .. على العموم هـذا عنوان البيت .. وأملى عليها العنوان ..

ثم قال :

ـ اذا حضرت ستجدين الخطاب جاهزا ..

فايزة ـ شـكرا ..

كامل ـ مع السـلامة ..

واعتقد كامل أن فايزة لن تحضر .. ودق هاتفه على هند وأبلغها أن تكون عنده بعد الخامسة مساءا ..

وشعرت هند بالكآبة وفى الوقت نفسـه طرأ تغير مفاجىء

على أفكارها .. حلت الارادة والقسوة والانتقام محل القنوط واليأس والظلم .. وذهبت الى دولاب أمها بعد أن أكملت ارتداء ثيابها والتقطت المسدس وحشته بالرصاص وألقته في حقيبة يدها .. الا أنه في لحظات عاودتها مشاعر مؤلمة للنفس .. وتهيأ لها أن دخانا كثيفا قد خيم على غرفتها .. ثم حلت ارادتها ثانية وقبوتها قائلة : اما أن أعيش حرة أو أموت .. أنا امرأة لا تستحق الحياة بعد هذا الذل .. أليس هذا هو الرجل الذي دمر بي وقدمني وجبة شهية لأصحابه .. أعتبر نفسي بلا أب أو أخ أو عائلة .. فلا أحد يدري بأمري غير الله .. ان الله سيكون معي اذ أردت .. أيها المنحدون من أين أتيتم .. وخرجت من البيت وهي مفعمة بخليط من القوة والحزن ثم عاودتها أفكارها :

كانت بلادي تحت الاستعمار الأجنبي .. فلم ينكل بامرأة .. لم يطلقوا شعارا أو يقيموا حفلة على شرف ولم نسمع كلمة ركيك ولم يتأهل لمنصب واحد من جثالة المجتمع .. كان الاستعمار ينهل الثروات فقط والحاكم يمر مع التاريخ مرورا سهلا دون أن يذهق أرواح البشر .. غير عباس الكبير يوجد آلاف العبابيس يجلسون على النساء ويسجنون الرجال ويضربون الحرية والحق كما تضرب الكلاب الضالة في عرض الطريق ..

كانت قدماها تدقان أرض الشارع بقوة .. وهناك وجدت باب المبسور مفتوحا وكذلك الباب الداخلي وفي تلك اللحظة

سمعت أصواتا بالداخل فتوقفت ثم تقدمت قليلا وخلعت حذاءها وتقدمت فى الصالة الى باب الغرفة المقفل وأطرقت السمع فاذا بصوت امرأة واضحا وصوته أيضا .. واستطاعت هند أن تحرك مقبض الباب حتى تحدث فتحة صغيرة وساعدها على ذلك مرور احدى المركبات الكبيرة محدثة صوتا عاليا.. وكان الحوار عاليا :

كامل ــ ان رياض أخى وأنت غالية عندى منذ أن رأيتك معه فى حفلة الذكرى الأولى لتنصيب .. أنا لم أرسل اليك الا بعد أن فكرت فيك كثيرا وسوف أقوم باهدائك فى كل مناسبة وتكون هناك عدد من الامتيازات سأضعها تحت تصرفك فى هذه المدينة ..

وكانت السيدة تقعد على أحد الكراسى الموجودة بالغرفة .. مشدوهة تتلعثم فى الرد .. وردد عليها كثيرا كلمة .. لا تخافى .. كيف تخافين .. أنت سيدة مجتمع وسوف أضع اسمك فى كشف نساء المدينة المرموقات وسوف .. وسوف .. .. كانت هند لا تسمع بعض الكلمات ..

وذهب ليفتح أحد أدراج المكتب ورفع يده بظرف أبيض لامع وقال :

ــ هذا خطابك .. سوف أكتب اسمك فقط .. قومى اخلعى ملابسك .. اذهبى الى أى غرفة وتهيأى وتعال الى الحياة والحب .. من أين أنت .. ألست امرأة وقفل المكتب

ودنا منها ولم تنبس المرأة بنبت شفه وأمسك وجهها بكلتا يديه ولم تقاومه المرأة ولكنها رجعت الى الخلف وأمسكت بذراعيه وكأنها ترجوه أن يعفو عنها .. وعلا صوتها :

ـ سوف أحضر اليك مرة أخرى ..

كامل ـ تعال .. بالطبع ستأتى .. ولكن هذا المقدم لابد منه ضرورى .. انه طلبى عندك .. ان كل امرأة متزوجة لرجل منا .. هى ملك الجميع وقت الضرورة تلبى النداء وهـذه هى الوطنية الحقة للحزب .. وتمشى نحو المصراح وأحكم قفله وعاد يمسكها من كتفها مداعبا .. وحاولت رفع يده من عليهـا لكن أصابعه تشبست بها .. وغرق البيت فى الصمت وتركها وراح يتمخطر فى الغرفة وهبت ريح بالخـارج تعصف .. ولم تنطق فائزة بكلمة .. كانت مشـدوهة لمـا يحدث .. وعلا صـوت العاصفة مما أضفى على فائزة شـعور بالخوف والوحشـة .. وقامت من على مقعدها بصـعوبة واتجهت نحـو الباب قائلة كأنما ترجـوه :

ـ هل تسمح لى بالعودة .. أنا متعبة ..

وضحك عاليا ويداه تتشابكان خلف ظهره .. وزعق فيها :

ـ لمـاذا جئت اذا ؟

فايزة ـ جئت لأثبت لك أنى امرأة تقدمية .. واذا كانت الأرض حق لنا .. جئت للحصول عليها ..

كامل وهو يبتسم :

ــ أنت غير جاهزة معى ..

فايزة ــ ليس لى مجال وتلعثمت .. ليس ــ أنا امرأة من عائلة طيبــة ..

كامل ــ هذا مربط الفرس .. عائلة طيبــة .. كل العائلات طيبات .. لا توجد عائلة غير طيبــة .. كل الناس تأكل وتشرب وتتسلى وتبيع وتشترى .. أليس فى الأرض حياة .. وأنت جئت من أجل هــذه الحياة .. وأنا أجد أن فى اللقاء معك حياة .. فكيف تأخذين منى حياة ولا تعطينى الحياة التى أرغبها ..

فايزة ــ ان زوجى رجل تعرفه وهو مخلص فى عمله وهو حياتى .. بحلوه ومره ..

كامل ــ عمله يتقاضى عنه المنح والحوافز .. ولأنك جميلة من .. جميلة النساء خصصنا لك هــذه الأرض وسيتم تسديدها من جانبك اذا فهمتين ..

وتقدمت خطوات نحو الباب وتركها .. لكنه اقترب منها وضربها على وجهها بأصابعه فاحمر وجهها وزمجر بالغضب لكن الدموع ملأت عينيها .. وطفقت تقول كلمات مبعثرة .

ــ كنت .. كنت أفهم .. أن .. أن الأرض من من أجل زوجى .. ولم أكن أعرف أنك تقصد بتقدم المرأة هــذا القصد .. واعتقدت أنكم تقضون مصالح الناس لأنكم أتيتم من أجلها

.. هل أعراض النـاس مقـابل حقوقهم .. ان كانت حقـا توجـد حقوق ..

وأشار بيده الى الفراش قائلا أ

ـ على الأرض اخلعى ملابسك .. لقد تحدثت معك حتى النهاية .. مع من تتكلمين ياقـ .. ..

فايزة ـ أنا ذاهبـة الى بيتى .. أعـود الى بيتى واعطى الأرض لمن تستحقها ..

كامل ـ اذا لم تعودى الى رشـدك سوف أجعل كرامتك كأى شىء قذر ألقى فى الطريق .

وتحاول فتح الباب وأحدثت ضجة مع المقبض لأن أصابعها ترتعش .. ورجعت هند الى الخلف .. وهرول نحوها وشدها بقوة الى الخلف فوقعت .. ولمـا بانت ساق المرأة البيضـاء الجميلة جن جنـونه وحاولت أن تقوم بسرعة لكنـه وقع فوقها محاولا اقناعها بالرضوخ وهى تزيحه بيديها وأطبق بيديه على جيدها فكادت تختنق وتبعرت المرأة حتى بطنها ودفعته بسـاقيها لكنه ضربها ضربا شديدا فى كل مكان بجسدها وشد سروالها ورماه الى أعلا وعادت المرأة عارية .. ان خطوة واحـدة من ضرب الرجل لها معناها الوقوع فى الخطيئة فلم تعد تسـتطيع مقاومته وبدأت تزحف على الأرض بظهـرها حتى التقت يدها بحـذاء فضربته به على وجهه وصرخ فى وجهها وبصق وخلع

بنطاله و .. وانعدل فوقها وداهمها بقبضة فوق رأسها وتشنج وارتعش وأصبحت كمن أغمى عليهـا وبدأ يقترب منها يحمـل سـاقيها بين يديه .. وهرولت هند الى الحديقة وحملت حجرا بكلتا يديها واقتربت من الواقعة وبكل قوتها ألقت الحجر فوق رأسه فنزل من على المرأة يسقط على جنبه وحجبت وجهها بفرش صغير وخرجت ثم عادت بالمسدس فى يدها واقتربت منه وأطلقت طلقتين فى وجهـه ورأسه وواحدة فى صـدره وغرق فى دمائه وكانت صرخاته أضعف من أن يسـمعها أحد بالحديقة وارتمى عاريا فى دماء أعماله المشينة .. ولم يكن من اليسير أن تمسك كلا المرأتين بأعصـابهما .. حيث ارتمت كل منهما على الأرض تبكى وترتعش .. غير أن فائزة ارتدت سروالها ولاذت تحتضن هند وتقول :

ـ من أنت من أين .. أتيت .. ياربى .. هل أتيت من أجلى .. من أرسلك ..

وانفجرت هنـد باكية ليس على الرجـل وربما فرحة .. أو لأنه حدث جرىء لامرأة تقبل عليه لأول مرة .. هل هى مأساة وضعت فيها .. أم هى طوق نجاة لها وللمرأة التى كاد يعتدى عليها .. ان هند فى كل الأحوال فرحة .. أية فرحـة .. لقد بكت لأنهـا لم تجـد غير البكاء يفجر ما بداخلهـا من أمور كلهـا مختلطة ومؤلمـة ومتشـابكة .. لقد كانت فايزة أكثر

تماسكا ولفتها بذراعها تحتضنها الى حمام البيت .. ومشت هند وكأنها تعرج وتولت هند فجأة أمر نفسها حيث اعتدلت وأخذت تمسح ملابسها من آثار دموعها ومسكت كتف فايزة قائلة :

ـ مبروك ..

واحتضنتها فايزة ممتنة .. وهنـاك فى الحمام تولت كل واحدة أمر نفسها .. بعدها دخلت المرأتان الغرفة لتتأكدا من موته وكانت الغرفة حوله غارقة فى دمـه وشدت هند شرشف السرير لتغطيه به .. وتأكد للمرأتين أنه انتهى وأنهما قامتا بعمل كبير وقالت هند :

ـ يجب أن لا نخرج الى الحديقة معا .. علينا أن نتأكد أنه لا يوجد أحـد حول البيت وتأكدت فايزة من نافذة المطبخ التى تطل على الحديقة من ناحية السور .. وطلعت هند متوترة الخطى وفتحت الباب ببطىء وبرز رأسها الى الشارع فوجدته ينصرف فى حركته العادية وأشارت الى فائزة بأن تتقدم نحوها وعنـد الباب اتفقتا أن تخرج واحدة بعـد الأخرى ولمـا خلا الشارع من أى حركة خرجت هند وبعـدها قفزت فايزة ولمـا اجتازا انحناء الشارع الى آخره كل تتبع الأخرى .. وتشابكت يدا المرأتان فى حرارة .. وقالت فايزة وهمـا يجوزان أحـد الميادين الموصلة الى شارع رئيسى :

ـ من أنت وكيف أتيت ..

هند ــ أنا واحدة من شبكة العنكبوت .. شبكة الموت .. ولكنى لست منهم والدليل أننى قتلت هــذا الأفعى ..

فايزة ــ هل يوجد غيره بالمدينــة ؟

هند ــ مئات أحط منه فى كل مدينة ..

وفكرت هند فى محاولة التخلص منها بسرعة غير أنهــا همست فى أذنهــا :

ــ ومن أنت ..

فايزة ــ تصــورى أنا زوجة أحــد من رجالهم .. الرجال الصــغار ..

هند ــ لا يتركون أحــدا ..

فايزة ــ هــذه المرة الأولى .. جئت للحصول على قطعة أرض وقاومته وضربته بالحذاء ورأيت بقية المحاولة ..

هند ــ أكان زوجك يوافق على مجيئك عنده ..

فايزة ــ يعتبر الأرض حتى ولو بهــذه الوسيلة احــدى حقوقه .. هو حزبى مخلص ويكون فخورا لأننى قابلت سيدة فهو بالنسبة له شخصية عظيمة .. وليس مهما أن يفعل بزوجته .. ان هــذه أمور تافهة وعادية .. وأن ما تفعله زوجته بالنسبة لهــذه الشخصية الكبيرة أقــل شىء يجب أن تفعله .. يعتبرها شيء مثل الوسادة أو التســلية .. ترقيه اجتماعى فى محله من القاعدة الى القمة ..

هند ــ انها المــأساة المؤلمة التى يعيشها هــذا الشعب .. لكن كيف تقبلين هــذا الزوج ..

فايزة ــ أقبل مرغمة خوفا من تدمير أسرتى واحداً بعد الآخر .. ان أم زوجى خادمة ومازالت تعيش فى بيت العبيدى .. وكان أبى يصلى كل وقت فى المسجد وهدده بالقائه فى غياهب السجون ان لم يتزوج ابنته ولما فاتحنى أبى وافقت لحمايته ..

هند ــ أعرف كثيرات قدمن أنفسهن طواعية وهن عضوات فى اتحاد النساء ويعتبر ذلك تنفيذا للتعاليم .. شرف جديد حل بالمدينة .. فمثلا يقولون .. الأرض ملك للجميع وكما تأخذ اعطي والأعراض كذلك للجميع .. من هنا يحدث التفاعل والتقدم والانصهار .. ان بوتقه مشتعلة من النار يختلط فيها الدماء والأعراض والأرزاق هى المنطلق الجديد والبعث القادم ..

فايزة ــ قرأت مرة فى كتاب .. أن المرأة فى بلادنا ستقول لابنها فى المستقبل .. عليك أن تموت من أجل أرضك ان أباك وأمك قدما من أجلها الغال والنفيس وهكذا تتوارث الأجيال التضحية .. .. اليوم فقط عرفت أى تضحية .. .. وبلغا فى سيرهما حيا آخر لطول الحديث بينهما وفى لباقة وامتنان افترقت المرأتان كل ذهبت الى مقصدها .. ولما عادت هند الى منزلها كانت تريد أن تخبر أمها .. لكنها ما لبثت أن تراجعت .. ولم تتناول أى طعام ونامت مرتاحة البال بعد أن خمدت لديها ثورة الغضب .. وكان يوم جمعة فذهبت الى المسجد للصلاة .. وهناك طلبت الهداية والتوبة وقرأت فى كتاب الله وتحدثت مع

بعض النسوة ثم انصرفت الى البيت .. وفى المساء طلبت من أمها أن تذهب معها الى طبيب لعلاجها .. وكان الطبيب من دولة أخرى ولم تكن هـذه أول حالة يقوم بعلاجها .. وله تجارب سابقة فى علاج الغلمان والفتيات والنساء اللائى اعتدى عليهن من دبر .. وأخذت هى وأمها تزوران الطبيب للعلاج والملاحظة لمدة جاوزت شهرين .. كانت فترة عظيمة الشأن واظبت فيهـا على الصلاة والقرآن لازمها فى القعود والفراش واليقظة وقبل النوم .. تغتسل وتصلى وتقرأ طالبة من الله العفو والغفران .. وقطعت صلاتها بالمطعم وسلامة والشـارع حتى العمل انقطعت عنه .. وذهبت هى وطفلتها وأمها الى السيدة ريما مرتين للعزاء .. وسعدت الأم والطفلة سعادة كبيرة بما فعلته هند ..

وتم تشييع جنازة الركيك كامل فى محفل رسمى واعتبروه رجلا وطنيا من الطراز الأول قدم لبـلاده الكثير من الخدمات الجليلة وأنه من شهداء الوطن الأبرار .. ولم يكن البوليس فى المدينة له أى دور فى البحث عن القاتل .. ولا يوجد بوليس فى العـالم مسـاوب من دوره مثل هـذا البوليس .. لأن المخابرات هى التى تقوم بهـذه الاجراءات وفى الغالب تتكتم عليها لمعرفة أسبابها أو أسرارها وتبعث بتقريرها الى القيادة .. ويكفى المدينة من الشرطة أن تجوب الشوارع وتطلق صفاراتها المعـروفة .. هـذا وحده يكفى لتخويف النـاس وارعابهم .. فاذا ما كانت حادثة قتل من عامة الشعب فليس للشرطة دور ..

فالبحث عن القاتل لا لزوم له بالمرة .. واذا كان من رجال العمل الوطنى .. فهذا دور المخابرات .. ثم يقدم تقرير البطولة ويمنح بعد موته لأسرته بعض الأقواط والنياشين .. وتمنح أسرته دفعة من المـال وقطعة أرض تكفيهم مدى الحياة .. ويعلق على باب بيته لافتة يكتب عليها .. شـهيد الوطن الرفيق .. أو شـهيد العروبة الرفيق .. أو المناضل الأوحد الرفيق ..

كان النهار طويلا والليل أطول والأوقات قاسية على ريما وكانت تقضى كثيرا من الوقت فى الجنينة مع ندا تتحدثان عن السيد أمين وذكرياته وأيامه وعافيته ومرضه .. فاذا مشت ترنحت واذا جلست وقعت .. واذا آوت الى الفراش تهالكت .. تصطدم بالأثاث تنزلق قدمها على الأرض الجافة .. تهوى الكلمات من فيها .. تساقط شعرها .. كانت ساقيها تبرز من القميص وقد برزت فيها النحافة والضعف .. وفى كل خطوة تخطوها كانت ندا تلازمها كظلها .. وفى الليال التى يشـتد فيها بأسها كانت ندا ترقد معها فى الفراش حتى الصباح .. ومرت الأيام والأسابيع بل والشهور وتلك الأعراض تلازم صاحبة البيت ولمـا أفاقت قليلا حدثت المحامى بعرض البيت للبيع وكافة العقارات القديمة بالمدينة .. من بيوت ومحلات .. بعدها بدأت تهيأ نفسها لمرحلة قادمة .. وكانت تستلقى على ظهرها دون حراك .. تنظر الى أشـياء لم تكن تراها من قبل تدقق فيها وتنشدها أحيانا وأخرى تشـعر بالذهول .. وتتساءل ما هذا .. من هذا .. هل ألم

برأسي شيء .. هل ضرب من الخبل يأخذني .. ولما تشعر بالتيه تقوم وتصلي فتستكين وتستطيع أن تجمع ذكرياتها يوماً بعد يوم مع أمين .. هل بعد هذا الحزن تسطع الشمس يوماً .. وكانت تعتقد أن كل الرجال مرضى مثل أمين .. ان كل الرجال مرضى والمرأة تتزوج لكي تتألم من أجلهم .. وأنهم جميعا يموتون وعلى المرأة أن تبكي لموتهم .. والمرأة تبكي على الرجل وهو حي ظالما أن هناك حياة قاسية .. واعتقدت أيضاً أن المرأة في مدينتها تبكي على الرجل حتى ولو كان في البيت لأنه غدا سيكون في المعتقل أو غياهب السجون المظلمة .... وتساءلت هل المرأة في مدن العالم الأخرى تبكي نفس النوع من البكاء على الرجل أم أنها تبكي نوعاً آخر فيه .. ولما تحيط بها الأفكار من كل جانب تنزل الحديقة فتشعر بعطر الجو ونقائه .. تتمشى قليلا ثم تصعد الى غرفتها بالطابق الثاني لشعورها بالخوف فترتمي في فراشها وتبكي .. انها تقوم بمحاولات للخروج من أحزانها لكنها تشعر أن الاستسلام لكل ما هو واقع هو أقرب الأشياء لها وتتنهد ويعاودها البكاء بغزارة .. وكانت تخرج الى السوق تصحبها ندا ولما تمشي في الطرقات ومنحنيات السوق لم تكن تعرف ماذا تريد وتترك لندا حرية الشراء.. تشعر أنها انسانة خائبة مشدوهة بلهاء .. وفكرت أن تكتب لأمها عن حالتها ولكن الفكرة سرعان ما خبت لأن أمها لن تفعل لها شيئاً .. ولما عادت الى البيت هذه المرة سقطت

على السرير تتأوه وتنتحب وخلعت ملابسها ولما رأت ساقيها العاريتين فى المرآه شعرت بأنها أنثى وأنه مازال لديها بعض عالم النساء الذى لم تره .. هل هى امرأة حقا وأن شيئاً فى داخلها يكاد ينفطر أو يتفجر كينبوع الماء ... وشعرت بغصه فى حلقها لكنها عندما تغطت فى فراشها تأوهت مرتين واحتضنت مخدعها وفكرت فى حياتها كأنثى .. هل يحق لها أن تتزوج .. وراحت فى النوم ..

ـ وفى يوم جاءها سلامة وتناول معها الغداء وحدثها عن العمل وكانت صامتة لا ترنو اليه .. وكانت تتوشح بعباءة سوداء فوق فستان واسع طويل لونه كحلى ووجهها الجميل تكسوه مسحات من الحزن وعيناها زائغتان فى المدى البعيد تحوم فى الأفق عبر النافذة .. ولم توجه عينيها بأى نظرة ولو عابرة الى وجه سلامة .. فهى اما مطرقة الرأس واذا رفعت عينيها فالى أعلا تحلق فى سقف الغرفة تارة أو فى احدى اللوح القديمة الجميلة المعلقة بالحائط .. انها تشعر أن تحليقها فى أفق السماء الممتد عبر السحب الكثيفة أو الباب الكبير المطل على الحديقة أفضل وأبقى من النظر الى وجه رجل .. فلا شيء مع الرجل فى الحياة غير الألم والحزن .. كان حيا أو ميتا وأن سلامة جاء من أجل المال .. فلتدعه يذهب .. وعليها أن تذهب .. ان آفاق الله وعالمه واسعة ومن خلالها يأتى الله بعالمها وسعته التى لا تنتهى سوف تجيء فجأة .. هناك فى الشمال .. الشمال هو ملاذها .. .. ..

ولما عاد سلامة الى الفندق وجد رسالة تنتظره من شاكر ..

عزيزى .. سأمر عليك فى الصباح .. أريدك فى أمر هام .. انتظرنى حتى السابعة .. بعدها اذهب الى عملك وسأمر عليك فى المساء .

مع تحياتى ..

شاكر حسون

وأخذ الرسالة فى جيبه وعاد الى الشارع يهرول من الخوف وامتلأت رأسه بالظنون .. ولما انطلقت قدماه كانت ترتعش أكثر منها تجرى وكان يقصد الشوارع المظلمة وانعطف يمينا سالكا الطريق المؤدية الى البحر ولما وصل الى المياه تمنى لو غرق فيها وتخطى جسراً ولما قابل أحد الأحياء القديمة وأنه سيغوص ثانية وسط الناس انقلب نحو طريق يؤدى الى غابة من الأشجار .. انطلق مسرعا فى هذا الطريق وكلما دخل فيه نهضت حوله عيدان البوص وأشجار النخيل وفروع السنط السوداء وهبت عليه رائحة مثل رائحة الصمغ وقفزت حوله بعض القطط السوداء وسمع وقع أقدام فكان يهرول أكثر وينظر خلفه فلا يجد أحدا وفجأة وجد نفسه قد أشرف على طريق عام وسمع صريرا أو صراخا يمر فى دماغه ووضع يديه فى جيب بنطلونه وأحنى رأسه الى الأمام مطرقا الى الأرض وفى أول انحنائه

بهذا الطريق وجد جمهره من الناس تتكوم على جثة رجل ملقى فى التراب والدماء تلطخ الأرض من حوله وغطاه أحدهم بورق الجرائد وزعق واحد من أهل المدينة أ

ـ يا أولاد الغبرة .. ممنوع ورق الجرائد يلامس الأرض انه كورق الكتاب فرد عليه واحد من أهل القتيل :

ـ نعرف .. نعرف .. هل معك شرشف ؟

وقعد الرجل يجمع الورق فدفعه أحدهم وخلع الرجل حذاءه ليقذف به فى وجهه الا أن واحدا حمل الرجل بعيدا يهدأه وخلع رجل من جنوب كان جلبابه ليغطى الرجل الذى سقط تحت عجلات عربة مسرعة حيث كان يجوز الشارع متوجها الى زيارة قريب له .. واستطاع الرجل أن يمد يده فى جيبه ليخرج بطاقته .. ونادى بصوت عال :

وردانى محفوظ الجحش .. من يعرفه ؟ الحواويش مركز الجوانى برانية ..

ولم يرد أحد بمعرفته .. الا أن بعضهم قال .. برانية .. جحش .. وقالت سيدة من المدينة وقفت لحظة .. وردانى يعنى ايه فرد عليها أحدهم .. يعنى ودين ياودين .. ورد آخر .. يعنى حلاق الغبرة .. وهزت رأسها وانصرفت .. الا أن رجلا آخر تساءل .. ليه سموه جحش .. ورد البعض عليه فى حنق ..

علشان يعيش .. وجاءت امرأة أخرى ترتدى عباءة سوداء فظرت شـذرا الى الناس غير أنها سرعان ما تأسفت حزنا وألمـا على الجثـة الملقاة وقالت معاتبة وهى تذهب .. يلعن مذهبكم .. ايش جابكم .. واجتر سلامة الأحزان بعض الوقت لكنه سرعان ما ارتد فى الطريق العكسى يلعن من دهم هذا الرجل فاذا به يغوص فى طريق آخر مؤدى الى بعض الحقـول ومش كثيرا وشرع الليل يهبط وكلما اندفع الى الأمام تمنى ألا يعود الى المدينة .. أن يذهب الى أبعد مدى عن شـاكر والفندق وطرق المركبات .. عن الناس جميعاً .. وراعه أن يرى امرأة تقعد فى أحد الحقول ثم اجتاز بابا من الحجارة القديمة كأنه باب المدينة القديم ولمـا صعد الطريق بعد الباب وجد نفسـه فى غابة من حشيش الحلفه الطويل مؤدية الى حافة النهر الكبير .. ومشى فى سرعة لكنه استشعر تعبا فى قدميه الا أنه تابع سيره حتى وصـل الجسر القائم على النهر .. وهناك تهالك على الأرض وافترشها وفى هذه اللحظة كان الليل قد أمسى تماما .. وشعر بأن الحيـاة تهجع حوله لكنها بعيدا تموج وتزدهر .. وتمنى لو كانت الحياة كلها هاجعة ساكنة مثل هـذا المكان .. ولمـا استراح قليلا قام وقعد وأخذ يلقى بحصى الأرض على صفحة المـاء ولمـا انتهى وضـع كفى يديه على وجهـه وراح يلعن حاجته وفقره :

ـ انى أنقسم .. شيء يضربنى بقسوة على ظهرى يطيح برأسى .. ياموج النهر الخالد ياصاحب المياه الصافية .. أنا طيلة عمرى كالطفل يعيش بفطرية وبساطة .. لا أعرف أى معنى للحرية أو العدالة أو الانسانية .. الحرية هى الحرية وكذلك العدالة والانسانية .. أهلك أيها النهر يريدونى أن أقول .. أن الحرية الحقيقية هى حريتكم .. وأن الانسانية انسانيتكم .. لكن ياسيدى النهر .. ان أحط أنواع الحرية هى حرية الكلام وأن أحط أنواع الانسانية هى الأنا .. أنا وأنا ان الانسانية الحقيقية أيها النهر العظيم هى الفعل الخلاق والنبيل للناس جميعاً .. انك أيها النهر أكثر الخلق انسانية لأنك تروى الناس جميعاً وهذه هى الانسانية طالما تروى ظمأ انسان أو تروى أرضاً .. وليست الانسانية أن تمنح الحرية من انسان لانسان لأنها حق فالحرية منحة من الله لخلقه تنتهى بموتهم .. والحرية التى تمنح من انسان لآخر وتغتال فى أى وقت فهى ليست حرية بأى معنى ولكنها انحدار للقيم بل وكفر بنعم الله .. وأقل تعبير يوصف به مانح الحرية للناس .. أنه يكون من أحط أنواع البشر والناس تقبل هذه الحرية تحت تأثير الخوف والقمع .. لأنه يحكم بأمر الشيطان .. ويتاجر فى الحرية التى منحها الله للناس والحيوانات والنبات والجماد .. مثل الهواء والماء والنوم واليقظة .. .. كيف يكون الحاكم مالكاً للحرية .. وكيف تكون الحرية الا القوة الرئيسية التى

يملكها أى انسان .. الحرية هى الهواء الذى يتنفسه الانسان من ولادته حتى موته .. وليست الحرية أن يفتح عباس الصنبور كل مساء أو صباح ويقول للناس هذه حريتكم .. ان البداوه والبيئة المنحدرة .. وأصحاب الشـذوذ والسفلة وأحط أنواع البشر هم الذين يتاجرون فى حرية هذا الشرق .. ان الحرية هى القيمة الحقيقية الوحيـدة فى علاقة الانسان بربه وعلاقة الانسان بغيره .. ان الحرية ليست أردب قمح يأخذ كل نصيبه منه بالبطاقة .. لقد اندحرت الشيوعية صاحبة البطاقة وأم الشعار .. أيها النهر العظيم أنا واحد من فقراء كان جئت الى بلادكم من أجل حفنة مال .. ولكى أحصل على هذا المـال فلابد أن يكون اتجاهى عباسى .. فهل أبيع حريتى من أجل حاجتى .. أيهـا النهر العظيم ان اتجاهى الحقيقى فى داخلى وانى أحتفظ بالحرية فى كينـونتى .. فاذا أراد عباس أن أشـترى حاجتى بحريتى .. فانى أفعل ذلك شكلا وليس مضمونا .. أيها النهر العظيم .. ان عباس ساذج وتافه .. ماذا يريد أن أقول :

هلا بيك .. هلا .. بأعلا صوتى هلا بيك هلا ..

ولكنى فى داخلى أقول ياأيها الخزى ويأيها العار .. لعنة الله عليـك وعلى من ولدتك .. انك لحق أجهـل من الدابة وأحقر البشر ..

كان سلامة يجهر بقـوله ويضرب الأرض بقدميه وانفلج حين بادره صوت على سطح المـاء يدوى :

ـ نحن بلد الحرية والعدالة والانسانية .. نحن نعرف ذلك وأنتم جئتم الى بلادنا من أجل هذه القيم .. أكثر من مليون لافتة وملايين الشعارات طبعت عليها فى كل مكان فى الحقل فى المصنع فى غرفة النوم فى الجامعات والمدارس فى حظائر الحيوانات لأنهم غدا سيفتحون فيها دروسا لمحو الأمية .. كل هذه الشعارات المعلنة والتى أنفق فيها الملايين من أجل ماذا .. انها ينبوع الحرية والعدالة والديمقراطية .. كل هذه المجهودات لتوصيل الحرية والعدالة الى الناس جميعا .. اذهب تحت أي لافتة وافتح صدرك وأنفك لتشم .. واقرأ فأنت البعيد لا تعرف .. انهل من الحرية امسك الأحرف وحديد السور المعلقة واحلب لبن الحرية والعدالة انك لا ترى .. ولا تسمع ولا تشم .. انك البعيد جاهل ان سيدنا عباس جعل الحرية فى كل هواء بلادنا معلنة مثل نور الشمس ..

وهوى سلامة على الأرض لقد أيقن أنه آتى بفعل مشين وأنه سيحاكم لا محالة .. ان أمره قد انقضى .. وكان الصوت لامرأة عجوز وتقدم خطوات نحو الماء وقال كمن يرجوها :

ـ يا سيدتى لقد تكلمت فى الهواء .. صدقينى أيتها السيدة الوقور أنا لا أعرف غير الكلام .. وان الهواء قد حمله بعيداً .. أرجوك يا سيدتى ان حريتكم تعجبنى وعدالتكم وانسانيتكم .. لقد أخطأت وأرجو أن تسدى الى بعض النصح ..

صوت المرأة :

ـ لقد أصبحنا أغنياء وأنتم فقراء وهذه هى حريتك .. فأخذ الأرض والقروض والطعام .. ان الذى يعطى المال والطعام والبيت يعطى الحرية .. ان حريتى أن أحصل على المال لأقضى به حاجتى .. هذا المضمون ماتعلمناه حتى الآن..

سلامة ـ لكن يا سيدتى المال مال الله .. ان الله هو الذى أتى بالذهب الأسود وهو قادر على نفاذه فى أى وقت .

المرأة ـ نحن لا نرى غير عباس فهو الذى يمر على البيوت .. وهو الذى يطعمنا ويسقينا ويحيينا نحن لا نرى ولا نعرف غير ذلك .. وهو الذى .. وهو الذى .. وهو الذى ..

سلامة ـ كلامك ذكرنى حين كنا صغاراً فى المدرسة نهتف ونحفظ الأناشيد الرنانة ونهتف بالشعارات بأعلى صوتنا و.. و.. ولما كبرنا وجدنا أنفسنا جميعاً فى الهلاك .. كنا نريد أن نرى أى معنى صغير للعدالة أو الحرية أو الانسانية .. فلم نجد أى معنى أو أى فتات .. لم نجد الا أشلاءاً مبعثرة ..

السيدة ـ اسمع ان لم يعجبك هذا فارحل أنت وكل الكائنين .. نحن جميعا نعرف أن سيدنا عباس هو كل شىء وكل الناس تعرف .. وهو الذى .. وهو الذى .. وهذا هو .. وهذا هو ..

سلامة ـ يا سيدتى نحن جميعاً جئنا من أجل لقمة العيش وليس لنا فى الحرية أو العدالة ..

ودخل سلامة فى فوهة من الكوبرى تنزل منها درجات طينية الى جوف النهر .. ظن أنه قد يغوص فى جوفه .. اتجه ناحية الصوت ونزل الى تحت .. ورأته السيدة العجوز .. ففغرت فاها واندهشت من رجل جسور يقتحم محلها فى الليل .. لم يكن يرهبها .. وكان على وشك أن يقع وعاوده شعور بالعودة حيث ملأه الخوف وتمنى لو فعل لكن قدميه لم تستطيعا حمله وكاد يصرخ وحاول أن يتفادى حفرة مجاورة للسلم وناداته قائلة :

ـ تعال ..

وارتد نحو الحفرة وحاول أن يصعد الدرج لكنها قالت ثانية :

ـ لا تخف تعال .. أنا قريبة لك ..

ولما قالت العبارة الأخيرة تذكر صوت ابنة عمته الحاجة أم سلامة .. هل كان لها شقيقة من أبيها السودانى .. هل جاء أبوها الى هذه البلاد وتزوج وهذه أختها وراوده صدق خياله حين رنا اليها .. سيدة قصيرة سوداء .. يا الهى انها صورة من أم سلامة .. وتشجع واقترب منها وكان يحضن الهواء الذى يفصل بينها وبينه .. انه فى حاجة الى الحنان ليتها تكون شقيقتها .. وعند هذه المشاعر والظنون زحف اليها فى شبوق حيث كان يصعد كومة من الصخر الى كوخها وكانت السيدة تمسك بعصا غليظة وتقف أمام الباب ..

وكلما اقترب منها كانت تقول .. تعال .. تعال ..
ولما وقف قبالتها تأملته ولما اطمأنت له قليلا .. قالت له :

ـ أى ضرب من الشقاء أتى بك الى هنا ..

سلامة ـ أنا مسكين يا سيدتى .. حكايتى طويلة ..

السيدة ـ لم يجرؤ أحد على اقتحام خلوتى فى وسط النهار .. فكيف تقدم على هذا فى الليل ؟

سلامة ـ انها الصدفة .. الصدفة يا سيدتى ..

السيدة ـ هل أنت منهم ..

سلامة ـ لست من أى أحد .. أنا كانى رحلت الى هنا من أجل حفنة مال .. أنا من الانسانية الأولى .. ومهما تقدمت الحياة حولى وكان سوق المدينة عامراً بالسلع والبيع والشراء .. فلن أبيع نفسى ولن أشترى من أحد نفسه .. الا النفس مهما كانت ضعيفة .. ولم اشترى من أحد غير طعامى ..

السيدة ـ اظهر أمانك .. كيف أأمن لك ؟

سلامة ـ أحكى لك حكايتى فى المدينة .. ليس عندى غير ذلك وأنا فى حاجة الى نصحك .. لكن من أين أنت يا سيدتى .. قلت أنك قريبة لى ..

السيدة ـ أنا امرأة لفظتها المدينة .. وأعيش على حافة الحياة .. وتقدمت السيدة الى البيت .. وقالت له :

اذا كنت تحمل أى قيمة صغيرة للأمانة والصدق ..
تعال .. اتبعنى .. أدخل بيتى ..
وتبعها قائلا :

ـ سأبرهن لك .. سأقدم دليلا على ذلك .. جربى مدى صلاحيتى فى هذه الصفات الطيبة .

ولما دخلا البيت كانت المرأة تراقبه مراقبة دقيقة دون أن تلفت ارتيابه .. وفرشت له حصيرة على الأرض الرملية ولما جلس تذكر جلوسه عند الساقية فى بلدته .. وبادرته قائلة وهى تلتقط بعض الأوراق من الأرض :

ـ هل تاهت معالمك .. أنت الآن طيب بائس ..
سلامة ـ أنا يا سيدتى ابن فلاح بسيط تعلم بالأزهر وأكبر شىء تدربت عليه هو الصلاة وعمل الخير ..

وكانت تتبعه بعينيها .. ووقفت خلفه برهة لتتفحصه والطمأنت قليلا .. كان وجه السيدة هادئاً وعيناها غائرتان بين عظام بارزة وحاجبان كثيفان . أما ذقنها فكانت عريضة تحمل لحما طريا .. متوسطة الطول ترتدى جلباباً أسود وشالا كذلك .. وكان حذاؤها ممزقاً .. وتقدمت قبالته وأمسكت بأحد الأعمدة النخيلية التى انتصب حولها البيت وقالت :
ـ هل أقدم لك طعاماً ؟..

سلامة ــ كيف تأتى بالطعام ..
السيدة ــ من عند الله .. الناس الطيبون كثيرون ..
سلامة ــ اذاً أنت تعرفين الله ..
السيدة ــ الحمد لله .. أكثر منك بالتأكيد ..
سلامة ــ الله أعلم ..

السيدة ــ ان علاقتى بالله تشعرنى بأنى أغنى الناس فى هذه المدينة .. أغنى من السلطان .. وأن السلطان بجانبى لا شىء لأنه لا يعرف الله .. فكل ما يملكه نار وشيطان وهذا الشعور دائم عندى لأن قلبى ملىء بالايمان .. ان الصلاة عندى فى كل وقت بالنهار والليل طالما أنى مستيقظة .. ان مسبحتى ألف حبة عقدتها من التيل .. أحمد الله انى أنتظر الموت وأنا فى منتهى السعادة للقائه . ولاحظت العجوز بخبرتها أنه من شمال كان وسألته :

ــ من أى بلد فى كان ..
سلامة ــ شنشور ..
السيدة ــ شنشور ايه ..
سلامة ــ قرية فى مديرية الملوخية ..
السيدة ــ هل تعرف أنى من كان ..
وهلت الفرحة فى وجهه : صحيح يا سيدتى ..
السيدة ــ جدى من هناك وجدتى .. أنا مولودة هنا ..

آه لو تعرف يا بنى أنا جد مشتاقة لهذه البلد .. ان حنينى اليها هو سبب وجودك هنا ..

وجلست السيدة أمامه وقالت :

ـ ليس عندى أى مشروب أو سجائر .. سأحضر لك الخبز الطرى والجبن والزبد .. ما رأيك ..

سلامة ـ والله انى سآكل من طعامك حتى ولو كان بتاوا بارداً ..

ولما دخلت غرفة صغيرة هى كل البيت لاحضار الطعام وجدها فرصة ليتأمل البيت المتواضع من حوله .. دكة خشبية قديمة وضعت عليها قلة ماء ومخدة كالمنطاد ممزقة يبرز منها أعواد الحشيش الجافة وفى ركن المدخل فرشت بطانية وضعت فوقها مرتبة مهلهلة .. وفى الركن الآخر وقفت عصا غليظة وعود من الحديد ومنقد من الحديد الصدأ .. بنيت الغرفة من الحجارة القديمة ودهنت بالطين وسقفها مجدول بأعواد الغاب الغليظة .. وليس بالغرفة نافذة غير طاقة بها لمبة كيروسين أضاءت هذا المكان الصغير ويتم تهوية الغرفة من الباب المطل على النهر .. وجاءت تحمل طبقاً قديما من الخوص العريض عليه الطعام .. ولما أخذ يتناول لقمات الخبز والجبن .. كانت السيدة لا تصدق أن رجلا يجلس فى كوخها وأنه ضيف غريب أفرزته أحداث المدينة .. ولما انتهى قام وصلى وصلت خلفه العجوز .. بعدها انقضت دقائق ثم حكى لها كل أحداثه فى

المدينة منذ وصلها والسيدة تضع كف يدها على وجهها الأيمن تارة وعلى وجهها الأيسر تارة أخرى وهى مستغرقة فى سماعه .. وكانت أصوات تنطلق من النهر لدوريات السواحل فتنظر اليه السيدة فى بسالة وتهز رأسها بأن يداوم حكاياته .. وقدمت له كوبين من المـاء وشربهما .. وشعر أنه يحكى لأمه فاسترسل وأسهب ولم يترك صغيرة وكبيرة الا رواها .. ولما انتهى اضطجع على الحصيرة وقامت السيدة الى الباب تحكم قفله .. وكانت تتمتم هل المدينة أصبحت مخيفة الى هذه الدرجة .. يالمسكين .. وراعها علاقته بهند ونصحته بالابتعاد عن هـذا الزواج وأن يوطد علاقته بالسـيدة ريما .. وعليـه أن يغادر الفندق فوراً الى مكان آخر .. ودعته حين تضيق به الأحوال أن يأتى لبيتها فى جنح الليـل .. وقعـدت بالقرب منه تفكر وأناملها على حبات مسبحتها .. ورنت اليه بنظرها واقتحمت وجهه بنظرة ثاقبة قائلة :

ـ ماذا تريد من هذه المدينة ..

سلامة ـ بعض المـال ..

السيدة ـ كن عبداً له حتى يأتيك ..

سلامة ـ ولكنى ..

السيدة ـ تجرد من كل شىء حتى تحصل عليه ..

سلامة ـ ولكنى ..

السيدة ــ اذهب الى بلدك اذاً ..

سلامة ــ أريد أن أقيم بيتاً ..

السيدة ــ فى بلدك تستطيع اقامة بيت مثل بيتى هذا .. وأمسكت بيدها رمال الأرض ..

سلامة ــ الطموح يا سيدتى .. نريد بيوتاً فى قلب المدينة ..

السيدة ــ سيظل هذا العالم غريب لأنه لا يعرف معنى البيت .. كل فقراء العالم يموتون ألف مرة لكى يعيشوا .. الفقير حقاً فقير فى تفكيره .. أنتم لا تعيشون الحياة بعمقها .. انكم تعيشونها من على السطح ..

سلامة ــ هكذا جرت العادة .. من يستطيع تحطيمها .. انها أمانى يا سيدتى وربما ..

العجوز ــ أى ربما .. ان هذا الطموح يؤخر الناس وهو الذى يجعلك تهرب وتهلع وتخاف أليس فى هذا عذاب .. علاقة مشوبة مع هند .. وفقدان حياة من نزل لآخر .. وها أنت الآن تطاردك يد شاكر حسون ..

سلامة ــ هل أعود الى بلدى دون نجاح ؟..

العجوز ــ نحن أولاد هذه البلدة تتعجب .. كيف تحصلون على حياتكم من الفتات ..

سلامة ــ الله يبارك فيه ..

ـ كيف ؟..

ـ أنت تصلى وتعرفين كيف يبارك الله ..

العجوز ـ نحن هنا ينقصنا التجربة ..

سلامة ـ ومن الغربة والتجربة تأتى حضارة جديدة حين نعود ..

العجوز ـ هذا مالا أعرفه .. الناس هنا قبل ظهور البترول كانوا فقراء .. يسكنون الخيام وأكواخاً من الحطب والجريد والغاب والبيوت من الطين .. كان الطعام الدائم هو الخبز والتمر .. ومع هذا الفقر كانوا كسالى ولا يسافرون الى بلد آخر ليأتوا بأى مال .. ولما جاءهم الله بخير فهم لا يعملون أيضاً واذا سافروا الى بلاد أخرى فانهم يسافرون للمتعة والتسلية .. لقد جاءوا بالناس من كل بلاد الدنيا ليعملوا لهم .. وأصبح كل انسان فى هذه المدينة مديراً فقط .. كل عمله هو التوقيع ..

سلامة ـ لقد رأيتهم يتعاملون مع الناس كالحيوانات ..

العجوز ـ لا تنسى أنهم فى أول عهدهم مع المدنية ..

سلامة ـ ان البترول قدم لنا مجتمع السادة .. حتى الأطفال سادة .. ان الأطفال هنا تعلموا العظمة .. ماذا سيحدث فى الغد .. اذا شعر الطفل بهذه العظمة وكبر عليها ماذا ستقدم يداه .. انها كارثة سوف تلحق بهم غداً ..

العجوز ــ ربما فى الغد سيقدمون الموت للمنطقة كلها ..

سلامة ــ أين القراءة وركوب الخيل .. والتواضع وبناء فكر وعقل الطفل بالأدب والسلوك الطيب .. البساطة والرقة والعمل الجاد الذى يخلق عالماً أو صانعا أو كاتبا أو .. أو .. يعلموه كيف تعمل يداه وكيف يفكر عقله .. وكيف يتكلم لسانه ..

العجوز ــ على العموم يا بنى أصلح من نفسك بالوصايا التى قدمتها لك .. وأتمنى لو نمت فى بيتى الليلة .. لقد أمسى الليل والبيت بعيد عن المدينة .. انى أخاف عليك فى الصباح الباكر انهض واذهب .. وابدأ من جديد ..

وكان المطر فى الخارج ينهمر طول الليل ورشحت منه حيطان البيت .. وعندما استيقظ فى الصباح سمع الريح تعصف وتدخل من تحت الباب وتبعثر الرمال حوله غير أنه تجرع من النوم نوبة أخرى . وسمع السيدة تصلى قبل الفجر ثم سبحت وكان صوتها يخرج من الغرفة المجاورة له كأنه طائر ينزل من السماء ولما كان يتقلب شم رائحة دخان وخبز .. وقامت السيدة تخبز له الخبز الطازج وقام وتوضأ وصلى وارتدى حذاءه واعتذر عن الفطور الا أن السيدة رجته أن يأخذ رغيفا طريا .. وانتظر ولفته له فى ورقة وكررت عليه نصائحها وأن أول ما يفعله مغادرة فندقه وعليه أن يأتيها فى أقرب فرصة

للاطمئنان .. وصافحها فى حرارة وانحنى يقبل يدها فشدتها منه قائلة :

ـ أستغفر الله يا بنى .. أستغفر الله ..

وفتحت له الباب وأشارت بيدها الى طريق على يسار البيت يوصله بسهولة الى الطريق العام وكيف ينزل الى طرق فرعية حتى يصل الى عمار المدينة .. وأخذت تدعو له وتذكر أمه السيدة حميدة فوده حين كانت تدعو له بوابل من الدعوات والأمنيات وسالت الدموع على خده وهو يجوز الى الطريق العام وقال يحدث نفسه :

آماه يا حبيبتى أين أنت .. هل ترين شيئاً مما يحدث لى..

وجفف الدموع بكف يده .. ودعا الله أن يوفقه وانطلق وكان شعاع الشمس قد بدأ ينتشر على صفحة الأرض وشعر بأن شيئا يجذبه الى ذلك النور ومد يده ليمسك بالأفق وخيل اليه أن الأرض تهتز تحت المدينة التى يراها بعيداً .. ان البيوت تنحنى لتمر الأشعة التى نفذت من السماء وكأن المدينة سفينة قد هزتها أمواج البحر .. وبهرته حمرة السماء ثم دار الهواء الرطب فى رأسه فانتشى وتراقصت الآمال فيه .. وكان يقضم الرغيف الساخن وقدماه تدقان الأرض بقوة .. وتساءل مندهشاً عن هذا التفاؤل الذى أتاه فجأة .. ويبدو أن أشعة الشمس وجمال الطبيعة حوله هو الذى أضفى عليه ذلك .. وسرعان ما اختفى سلامة من الأرض الفضاء الواسعة ودخل

شوارع الحى القديم وقفل بعد ذلك شعوره ليمضى بين طوابير أهله الكانبين الذين يتسابقون فى الصباح الباكر الى أرزاقهم وبدأ صخب الشوارع يدوى فى أذنيه وركب باصاً الى الفندق .. وهناك جمع حاجياته فى حقيبة ودفع حسابه لصاحب الفندق .. ولما نزل ثانية الى الشارع شعر بانفراج فى التنفس ومشى قليلا وصعد الى مركبة أجرة ليذهب الى المطعم ثم يبحث عن فندق فى المساء .. وجد عبد اللطيف قد فتح المحل فى التو .. ولما سأله عن الحقيبة أخبره سلامة أنه سينتقل الى فندق آخر بعد العمل .. وناوله عبد اللطيف رسالة من هند .. وطلع الى السندرة يضع الحقيبة ويقرأ الرسالة وقعد على الأرض الخشبية وفض الورقة ..

عزيزى فى الله ..

آنت تعرف أننى تدهورت كثيراً ونزلت الى أسفل .. تلك الحياة التي كنت أعيشها كانت أحط من قعر النعال .. هم الذين أخذونى عند هذا القاع .. كنت طفلة بريئة مثل ملايين أطفال العالم .. لكن حياتى كانت عبداً لحياة الخونة فأذلونى ونكلوا بى وتدهورت بى الحياة كما قلت وعدت فتاة ضالة ثم امرأة أكثر ضلالا .. وكان آخر هذا العهد علاقتى بك .. لم يكن زواجى بك هو الزواج الذى تتمناه أى امرأة .. لكنه زواج الذين جرحوا فى حياتهم أو الذين ضربتهم الحياة .. أو هؤلاء العرجى والضعفاء فى هذا العالم .. لقد اختفى هذا

الضـــلال والظلام من حياتى وأظنك تســـعد بذلك .. ان الله نور لى طاقة من النـــور والحب والهـــداية .. أحببت بيت الله ولا اكاد أبرحه .. تزينت رأسى بالحجاب .. أنا خائفة عليك.. وأشد خوفاً على الغرباء خاصـــة الكانيين .. لا تتورط مع جهاز المخابرات هنا مهما قدموا لك من مزايا .. ان كل كانى يؤدى مهمته .. يتم اعدامه .. اختفى فى أى مكان لا تظهر .. حاول أن تعمل فى المدينة وأنت مختفى ان استطعت .. لا تتعرف على أحد من المدينة أو من كان أو من أى بلد .. أنت أطرش وأصم ولا ترى أى شىء واذا ســـألك أحـــد عن اتجاهك .. قل له أنا حمار لا أعرف غير الفول والطعمية .. أرجو أن تلتمس لى العذر فلن آت لأراك .. وأحمد الله انى انقطعت عن العمل .. ان علاقتى بالله أقوى من أى شىء .. ولن يســـتطيع أحد أن يجبرنى على العـــودة الى المـــاضى حتى ولو أدى ذلك بى الى الموت .. أرجوك أن تفهمنى وتساعدنى .. مزق عقد زواجنـــا لديك .. لقد بدأت طريق الحب الحقيقى والهداية ..

مع أمنياتى ..
هند يوسف القشيش

ولمـــا انتهى رفع رأســـه وخرج منها شىء مثل دخان عفن وتنفس ملء صدره هواءاً ذكيا عليلا .. وقال وهو يضع الرسالة فى حقيبته :

ـ الله معك يا من كنت زوجتى .. ليتنى أجد النور الذى أخذك .. والتمس الطريق الذى تسيرين فيه ..

ونزل يعمل مع عبد اللطيف حيث أخبره بموضوع هند حتى يخرج ما يوسوس فى صدره بشأن هذه العلاقة ولتستريح نفسه ويكون أكثر وداً .. لأنه لاحظ أن عبد اللطيف فى الفترة الأخيرة يضايق هند ويشاكسها وهذا دليل على أنه يضمر للمحيطين حوله نوايا غير خيرة .. وكان سلامة سعيداً طول اليوم حيث بدأت بوادر حياة جديدة .. أولها زيارته للسيدة العجوز عند الجسر وثانيها النهاية الطيبة مع هند .. وفى المساء ذهب الى نزل جديد .. وشعر أنه وضع قدميه فى بداية طريق واسع فسيح ..

الفصـــل الثالث

ومرت الأيام نزل فيها سلامة فى فندق بوسط المدينة .. وعلمت قيادة التنظيم بانقطاع هند عن العمل وانتظامها فى بيت الله وأثارهم لباسها الحشمة وارتداء الحجاب .. وانعدام الفائدة من عبد اللطيف فلم يصلهم من مدة تقارير منه عن الكائنين فى المدينة .. وقرروا اختبار نواياه خاصـــة وأنه مخبر قديم ولديه كثير من أسرار العســل .. أما الســيدة ريما فباعت كثيراً من ممتلكات زوجها وكان الدور على قصرها الصغير .. ولمـا بلغ انقطاع سلامة عنها أكثر من شــهر زاد قلقها .. وركبت عربة أجرة وقصدت الحانوت فلم تجده وهناك التقت مع لطفى الذى كان يقوم بتنظيف المحل قبل مغادرته .. وأخبرها أن ســلامة ينزل فى أحــد فنــادق وســط المدينــة .. ولمـا ســألته عن عنــوانه فأخبرها أن ســلامة لم يعلمه به .. وحدثها كثيراً عن المحل وحاول أن يتودد لها .. ثم أخبرها بأن ســلامة على علاقة بالسيدة هنــد .. وأن ســلامة أعلمــه بأنه متزوج منها ولقاؤهما دائما بسندرة المحل ..

انهارت ريما برأسها على الطاولة وأمسكت بشعرها وشهقت وأغمضت عينيها ثم هزت رأسها .. وقالت وهى تحاول جمــع قوتها :

ـ ومن أدراك بهذه التفاصيل ..
عبد اللطيف ـ سلامة أخبرنى بنفسه ..
ريما ـ ويلتقيان هنا ..
عبد اللطيف وهو يحمل كوب ماء يقدمه اليها :
ـ فى السندرة .. رأيتهما بعينى عدة مرات فى الصباح..
ريما ـ منذ متى ..
عبد اللطيف ـ منذ وقت طويل ..
ريما ـ لماذا لم تخبرنى ؟..
عبد اللطيف ـ اعتبرت هذا تطفلا منى .. وعزمت أن أخبرك عندما تسمح الظروف بذلك .. لكنهما ..
ريما ـ لكنهما ماذا ..
عبد اللطيف ـ أخبرنى سلامة بأن العلاقة انتهت منذ أيام قليلة .

ريما ـ وهل انقطعت بالفعل ؟..
عبد اللطيف ـ فعلا لم تأتى هند الى هنا منذ مدة ..
ريما ـ الأماكن كثيرة فى المدينة ..
عبد اللطيف ـ ربما ..

وغادرت المحل وهى تتألم وأخبرته بأن يعلم سلامة بمجيئها وأنها تنتظره فى الغد .. وتهيأ لها وهى تمشى أنها تعرج واستطاعت الحصول على مركبة وضعت نفسها فيها حتى البيت..

وفادت على ندا كأنها تصرخ وهى ترتمى فى أحضـــان شـــجرة قرب الباب ..

ـــ ندا .. ندا .. اغيثينى .. أنا تعبانة .

.. أنا ..

ولحقتها السيدة قبل أن تقع .. ماذا بك يا سيدتى .. هل حدث شىء .. واحتضنتها الخادمة بذراعيها ودخلت بها البيت.. وندت أصوات فى داخـــل ريما وقالت وهى ترتمى على أرض الصالة .. وكان صـــدرها يتمزق :

ـــ أنا تعبانه مرهقة .. أسرعى بالطبيب .. أدخلينى غرفة أمين وحملتها الى الفراش الذى كان ينـــام عليـــه أمين وغطتها وحملت عنهـــا ســـاعتها وحـــذاءها وجوربهـــا وبللت كفهـــا بالمـــا ومسحت على جبينها ثم فكت أزرار قميصها .. وهاتفت للطبيب الذى حضر بعد العشاء ولمـــا قامت فى منتصف الليـــل أخبرت ندا بأن الحياة لم تعد تساوى عندها شـــيئا وأنه لا أمان عند الأحياء .. وأن الغدر والعنف والمـــال كل شىء فى الحياة التى يعيشها الناس الآن .. وأى معان نبيلة ليس لها مكان ولم يعد فى الحياة غير الألم .. راحت تبكى بمرارة بالغة وقلبهـــا فريسة للحزن وأمسكت ندا يدها قائلة :

ـــ لا تبكى يا ابنتى .. مازال فى الحياة جمال وأمل .. من الذى أبكاك يا أطيب النســـاء ..

ريما ــ أليس هناك امتداد للأعمال الطيبة .. ألم يرى فى عينى معزتى وتقديرى له ..

ندا ــ من هــو ..

ريما ــ ألا يعرف أنى عملت هذا من أجله وأنى كنت أنوى أن يرحل معى الى الشــمال ..

ندا ــ من هو يا ســيدتى ..

ريما ــ ســلامة ..

ندا ــ الكانى ..

هزت ريما رأســها بأنه هو ..

ندا ــ وماذا حدث منه ..

ريما ــ يلتقى مع هنــد فى حانوتى ..

ندا ــ هند .. هند تفعل هذا ..

ريما ــ مات زوجى وماتت الدنيا من حولى .. صديقتى الوحيدة هند .. وهذا الرجل الغريب قدمت له الخير فقــدم لى السم فى بيتى ..

ندا ــ لا تنتظرى من الناس أى خــير .. الخير من الله وحــده ..

ريما ــ ولكن .. ثم بكت وحاولت ندا اسكاتها قائلة :

ــ وهذا هو الكانى يشبع بالمــال ثم يبطش ..

ريما ــ العيب على هنــد ..

ندا ــ وعليك ..

ريما ــ لماذا ؟..

ندا ــ قلبك الطيب وعطفك على الناس ..

ريما ــ هذه أخلاقى وستظل ..

ندا ــ لا تبكى اذاً على أحد ..

ريما ــ أنا انسانة ..

ندا ــ وماذا تريدين من الكانى .. الكانى فى بلاد الغربة لا يعطى شيئاً .. انه يأخذ فقط ..

ريما ــ ولكنى ..

ندا ــ ماذا ..

ريما ــ أحبه .. أحبه ..

ندا ــ هذه المشكلة اذا .. اهدئى .. سأتدبر الأمر معك ..

ريما ــ هل تساعدينى .. حاولى مساعدتى ..

ندا ــ هذا شىء مفروغ منه .. ليس لى فى الدنيا غيرك..

وكان اليوم التالى شديد القساوة .. تداعت ريما كأن صخرة سقطت على رأسها .. وكانت تقول وندا بجانبها .. الناس سقطوا فى لحظة ضعف والمدينة تدوس الجميع بأقدامها.. وكانت ندا تقول لها :

ــ ماذا تعنى .. الناس سقطوا والمدينة تدوسهم ..

ريما ــ أنا لن أسقط وسآخذ سلامة من هند ..

ندا ــ كل ما تريديه تناليه ان شاء الله ..

ريما ــ ان امرأة طاهرة وطفلا بريئاً وشيخا وقوراً وشابا مؤمنا .. ان هؤلاء مازالوا فى مدينتى .. هؤلاء لم يسقطوا أبداً .. لم يسقطوا أبداً ..

ندا ــ يعنى هؤلاء لن تدوسهم المدينة .

ريما ــ سيقيمون مدينة جديدة ..

ندا ــ أنا لا أفهم تماماً يا سيدتى .. لكن الله سيكون معك دائماً ..

وأفاقت ريما بعد الغداء وارتدت فستانا أسود وشالا وأخذت تتمشى فى الحديقة تصحبها ندا ثم جلست بين الزهور والحشيش الأخضر .. ورغبت سيدة البيت أن تسير قليلا فى شوارع الحى .. وخرجت ومعها ندا تخطو خطواتها وتكرر اقوالها .. وتبعث فى داخلها الأمل والحياة .. سارا فى طريق هادىء بعيداً عن أعين الناس .. وكان المطر فى السماء يتساقط حبة بعد أخرى وظهرت المركبات الكبيرة والباصات وعربات النقل الضخمة .. فانحنيا الى شارع جانبى وسرعان ما عادا من طريق معاكس الى البيت .. وبقينا بعد ذلك ربع ساعة يداعبان أوراق الشجر ويقطفان ثمار البرتقال فى الحديقة .. وكلما قالت ريما شيئاً ردت عليها ندا .. معقول .. ياه .. آه

يا سيدتى .. ربنا يعطيك .. وكانت ريما تسعد بهذه الكلمات وتحب أن تسمع منها المزيد لتأكدها من اخلاص ندا لها .. انها الانسان الوحيد الذى يبعث فى داخلها الأمل .. وبدأت ريما تجمع أفكارها ولما استنشقت عطر الجو بدأ المطر يسقط .. فهرعا الى الداخل يقفلان مصاريع النوافذ بالدور العلوى وأشعلت ندا المدفأة وشربا الشاى ثم راحت ريما فى النوم وذهبت ندا تقضى أعمال البيت ثم جهزت طعام العشاء ..

.. وفى صباح اليوم التالى أبلغ عبد اللطيف سلامة بالذهاب الى السيدة ريما .. وسرت فى جسده رعشة الا أنه تمالك نفسه وقال : ولماذا أذهب ..

فقال عبد اللطيف ــ كانت هنا بالأمس .. وضحك .. بعينها هنا ..

سلامة ــ وهل أعلمتها عن شىء ؟..

عبد اللطيف ــ عن كل شىء وابتسم ابتسامة خفيفة تستلى خبثاً ..

سلامة ــ هل علمت بأنى ألتقى .. أقصد كنت ألتقى مع هند هنا ..

مط عبد اللطيف وجهه الى الأمام وقال :

ــ هى علمت .. لكن ليس منى ..

سلامة ــ هل تحلف باليمين ..

عبد اللطيف ــ صــدقنى من غير أى يمين علمت .. ربما من هند ..

سلامة ــ عبد اللطيف .. لقد عملت من أجلك ما لم أعمله فى أحد .. أتيت لك بالخير وأنت تتصيد المكيدة لى .. لماذا .. على العموم سوف يكون معك حساب ..

وخرج من المحل غاضــباً ودلف الى عربة أجرة قاصــداً بيت ريما .. وحاول أن يمسك بتلابيب نفسه وان يدخل اليه بعض الجسارة .. ولمــا أدرك أنه يحمل رسالة هند اليه والعقد العرفى تملكته الشجاعة والقوة .. وقال يشجع نفسه .. أجرى على الله .. وانطوت العربة فى المدينة تجوب حيا بعد آخر .. وكذلك نفس طيبة على نفس أخرى مضت كانت مشوبة .. كانت نفسه بالأمس لا تهتدى .. انه اليوم يصحو .. يرى المدينــة والناس كأنه يمسك بالأشياء ويثق فيها .. وتقدمت فدا أمامه تدخله البيت .. وفى غضب بلغه الأدب دون أية عصبية دخلت ريما عليه قائلة دون أن تصافحه :

ــ أهلا بك ..

ووقف قائلا :

ــ أهلا .. أهلا ..

وجلست قبالته بوجه يمتلأ بالحزن وعيون تورمت من كثرة البكاء .. لكن وجههــا فى كل أحــوالها ينبثق منه النــور

والطيبة .. وقالت وهى تنظر اليه محاولة اقناع نفسها بالتعقل والحكمة :

ـ لقد ساقتك الأقدار الى هذا البيت وسكتت .. كانت تريد أن تقول كلاماً آخر لكنها توقفت ..

سلامة ـ نعم ساقتنى الأقدار .. وماذا فى ذلك يا سيدتى .. اننا جميعاً تدفعنا الأقدار ..

ريما ـ أنا لم أفعل لك الا كل خير ..

سلامة ـ أقدر العمل الطيب الذى قدمتيه لى ..

ريما ـ علمت يا سلامة .. أولا أنا لا أحاسبك .. علمت أنك تلتقى مع هند فى المحل ..

سلامة ـ فى أول عهدى بهند كنت محمولا بكل قوتى أن أفعل أشياء دون أن أقدر نتائجها .. ولما وجدت هند تندفع الى بقوة وأنا لا أخفى عليك كنت ايجابياً معها .. فكرت فى زواجى منها رسمياً .. وأخبرتنى أن ذلك الزواج يتأخر فى اجراءاته .. ولم تكن تستطيع أن تنتظر .. فتزوجتها عرفياً .. ولم يكن هناك مكان نلتقى فيه فكان المحل ..

فغرفاه ريما مندهشة يحذوها أن تسمع مزيداً من التفاصيل .. لكن سلامة سكت فقالت :

ـ التقيت بها بعد افتتاح المحل أو قبله .. ولم يكن يقدر أن يقول لها أن أول لقاء تم بينهما كان هنا فى بيتها لكنه ابتسم وقال :

ـ قبل أن يشتغل المحل التقيت بها ..

ريما ـ أين ..

سلامة ـ فى المحل ..

ريما ـ كثيراً ..

سلامة ـ كثيراً ..

ريما ـ فى الصباح أو المساء ..

سلامة ـ فى كل وقت ..

ريما ـ كنت أظنك أقوى من ذلك ..

سلامة ـ أنا .. انها أول مرة فى حياتى .. لم أر امرأة فى حياتى قبل هند ولما اندفعت نحوى لم أكن أستطيع مقاومتها .. شعرت بالاستسلام بل أقدمت نحوها أنا الآخر ..

ريما ـ وهل رأيت فى لقائها سعادة ..

سلامة ـ نعم .. كان فيها سعادة لا حدود لها ..

وكنمت ريما غيظها وقالت :

ـ الى متى ستظل علاقتك بها ..

سلامة ـ لقد انتهت ..

وانفعلت وكأنها تصرخ :

ـ أه .. أه .. لماذا ..

وأخرج ورقة من جيبه .. انها رسالة هند .. وقال :

ـ هذه رسالتها ..

وأخذتها بأصابع مرتعشة وقرأتها مرتين وثلاث .. وسرت السعادة بوجهها وقالت :

ـ هل هى صادقة فى مقصدها ..

سلامة ـ ان لم تكن صادقة فلقد قررت انهاء العلاقة .. وأخرج العقد العرفى من جيبه ومزقه .. وحاولت أن تثنيه عن تمزيقه لكنه أنهى على العقد وقعدت على الأرض تجمع قصاصاته وتحاول قراءتها لكنها لم تستطع أن تتبين أى معنى فحملته فى يديها الى سلة المهملات بالصالة .. ولما عادت كان يضع ساقاً على الأخرى وبدا عليه الرضا .. وابتسمت ريما ابتسامة هللت وجهها ونظر اليها بعمق كأنه يقول لها أنا لك وحدك .. وكأنها تفهم ما يعتمل فى نفسه فقالت :

ـ هل تسمع كلامى من الآن ؟..

سلامة ـ قولى وأنا أسمعك ..

ريما ـ أنت فى مدينة غريبة وعليك أن تستشيرنى فى أى أمر .. أنت مثلا رحلت من فندق الخليج الى فندق آخر .. لماذا ..

سلامة ـ ان رجل المخابرات يطاردنى ويحاصرنى ..

ريما ـ ليتنى أستطيع قتلهم جميعاً ..

سلامة ـ أليس من الأفضل تغيير عبد اللطيف ..

ريما ــ لن تجد أفضل منه فمعظم الكائنين هنا من طينة واحدة ..

سلامة ــ هل يعتبر هذا مكافأة لأنه أخبرك بعلاقتى مع هند .. وأن بقاءه واستمراره تشجيعاً لذلك ..

ريما ــ لقد عرف الزبائن وعرفوه .. ولماذا تخاف من وجوده .. وهزت كتفها وأردفت : أجعله رقيباً عليك .. أخاف عليك من النساء .. هل هذا يضيرك فى شىء ..

سعد سلامة لاعرابها عن غيرتها وضحك عالياً وقال :

ــ وجوده لا يضيرنى .. طالما هذه رغبتك ..

ريما ــ اتفقنا .. على أن تأتى كل يومين لمتابعة سير المحل ..

وغادر سلامة البيت وودعته ريما وهى مملوءة بالرضا .. وفى اليوم التالى ينبس مع عبد اللطيف بكلمة واحدة .. كان كل منهما ينصرف الى عمله فى صمت .. كان لطفى يتوهم أن تطرده السيدة مثلا أو توبخه على الأقل فيترك سلامة المحل .. ولما أيقن أن السيدة لم تفسد على سلامة شىء بدأ يفكر فى شىء آخر يبعد سلامة عن المحل فقرر أن يكتب فيه تقريراً يسلمه الى زجل المخابرات الذى يعمل معه وتكررت زيارات سلامة لريما وكان فى كل مرة يتقرب اليها وهى الأخرى تفعل يتحدثان فى أمور مختلفة يلتقيان ويختلفان وكانا فى النهاية

يستسلم أى منهما للآخر وكأنه يريحه أو يرضيه .. كان ينظر اليها فى عمق محاولا فهمها أو سبر أغوارها وكانت تعد له أشهى أنواع الطعام وأجودها ولا تبالى بأى تكاليف لأى وجبة تعدها له .. وتجهز له الحلوى التى تعملها بيديها ثم تطورت عنايتها به فكانت تكوى له ملابسه بعد أن تقوم بغسلها فبانت على سلامة آثار النعمة الكاملة .. طعام .. ملابس نظيفة .. مال .. امرأة تعتنى به وتتقدم نحوه بخطى عاقله .. غير أنها فى كل مرة كانت تتحشم عن المرة سابقتها ولم ترتدى فستاناً قصيراً يفصح عن ساقيها أو مكشوفاً يظهر صدرها أو ضيقاً يشير مفاتنها أو .. أو .. لقد كانت معه مرة وبحضور هند ما جنة صاخبة .. ان أحداثها بعد ذلك وخاصة موت زوجها جعلها أكثر تدبراً وأشد حشمة .. تراعيه وتخاف عليه وتعتنى به .. لكنها لم تقترب منه أو تلامسه وكان هو كذلك فزادت دائرة الاحترام بينهما قوة وتكونت بينهما معزة أدبية لم تكن شائعة فى تلك المدينة .. وكانت ربما تحرص دائماً أن تكون قدا فى أى جلسة .. أو تناول طعام أو .. عملا ألا يكون الشيطان ثالثهما .. ومرت الشهور .. المحل يعمل والدخل يرتفع .. والعلاقة القوية بين سلامة وربما وقدا تزداد يوماً بعد آخر مودة وعناية ورعاية .. وهند تنصرف الى العبادة وتنكب فى البيت على قراءة القرآن والكتب الدينية .. وطفلتها تكبر وتنام فى أحضانها وأم هند تسعد بتلك الحياة الجديدة النظيفة

والزوج ينصرف على تجارته فى الجنوب .. وعبد اللطيف يتوق الى معرفة أى امرأة من المدينة ليسعد كما يسعد سلامة ..

وفى يوم غاب سلامة عن عمله فى المحل لمرضه .. ودخلت المحل سيدة من المدينة لا تتجاوز العقد الثالث من العمر اشترت السمك المشوى وتفحصته ملياً وذهبت .. وفى يوم بعد انتهاء العمل راقبت السيدة المحل من بعيد حتى خرج سلامة ودلفت الى المحل قاصدة لطفى قائلة :

ـ أنت كانى ..

عبد اللطيف ـ نعم .

السيدة ـ منذ متى هنا ..

عبد اللطيف ـ منذ خمس سنين ..

السيدة ـ أريد التحدث معك ..

عبد اللطيف ـ فى أى شىء .. أنا تحت أمرك ..

السيدة ـ بعد ساعة يناسبك ..

عبد اللطيف ـ يناسبنى .. .. انصرفت المرأة ..

وسعد لطفى بها وقام بكنس وتنظيف الحانوت على وجه السرعة .. وارتدى ملابسه وتناول بعض الطعام وجلس أمام الباب يرقب ظهورها .. ولما هلت فى الجانب الآخر قام وقفل المحل وجازت الشارع واقتربت منه تحضن عباءتها السوداء بيدها على صدرها وقالت كمن تهمس فى أذنه :

ـ تعال خلفى ..

وتبعها حيث وقفت تبحث عن عربة ودلفت اليها وهو وراءها بالمقعد الخلفى .. ولما انسدلت العباءة قليلا بانت ملابسها الزاهية الناعمة وفاحت رائحة العطر تعبق فى المركبة الصغيرة وتململ فى جلسته وهمس قائلا :

ـ الى أين ..

السيدة ـ الى البيت ..

هز رأسه وقال :

ـ هل يوجد أحد فى البيت ؟..

السيدة ـ أمى ..

عبد اللطيف ـ وماذا تريدين منى ..

السيدة ـ التعرف عليك ..

وتاقت نفسه الى المجهول .. لقد كان يتمنى امرأة وجاءته .. أليس هذا ما أراده .. ودخلت العربة أحياء جديدة فى أطراف المدينة .. وعند بيت صغير أحاطته حديقة يلفها سور عال وقفت العربة .. لم يكن بجوار المنزل أى بيوت أخرى .. لكن على مرمى الرؤية توجد بيوت متناثرة لم يتم بناؤها بعد .. ودخلا البيت وتقدمته المرأة بضع خطوات ونادت قبل ان تصل الى الباب الداخلى :

ـ أماى .. أماى .. معى ضيف .. معى ضيف ..

وهلل صـــوت قبل أن يرى عبد اللطيف .. هلا .. هلا بالضيف ..

وألقت المرأة العباءة على الأرض المكسوة بالسجاد وجاءت سـيدة فى العقـد الخامس من عمرها صافحت الرجل وتقدمت نحـو باب غرفة قائلة :

ـ تعال هنا .. اتفضـل ..

ودخـل وقعد فى غرفة واسـعة متناثرة الأثاث وجـاءته المرأة قائلة :

ـ هل تخجل من وجود أمى .. انها ستنصرف بعد قليل..

وفغر فاه الرجل وقال :

لا .. لا ..

وجلست قبالته مسترسلة :

ـ رأيتك منذ أيام .. وكنت أود منذ وقت التعرف على رجل كانى له نفس الوجة .. نفس الملامح .. أريد رجلا من المكافحين .. أسمر يعمل بيد وبالأخرى يمسح عرقه .. منـذ ولدتنى أمى وأنا أبحث عن شىء غريب .. أى مختلف وبعيد وليس أمامى هو مطلبى وأنا مندهشة من وجود هذا الكم الكبير من الكانيين فى كل مكان .. واخترت فى الاختيار الى أن وجدت وجهك الأسمر الغير مهندم الملامح .. أحب هـذا النوع من الوجوه .. هل لديك مانع ..

عبد اللطيف ـ لا .. لا .. كان ينظر اليهـا فى صمت وتمنى لو تكلمت كثيراً لتفصح عن نفسها وماذا تريد .. وتساءل هل هذه المرأة تريد رجلا حقا .. وبهـذه الطريقة المباشرة .. وحدقت فيه المرأة بعينين سوداوين واسعتين وقالت :

ـ أليس هـذا حقى .. أليس كذلك .. ألست حرة ..

عبد اللطيف ـ حرة طبعـا ..

وشهقت دون داع ووضعت سـاقا على الأخرى وضحكت وسرت ضحكتها فى أرجاء البيت .. ودقت الساعة تعلن السابعة مساءا .. وتداعى شىء فى داخله فلم يكن لديه أى حياة أخرى غير العمل .. وعليه أن يدع نفسه ملكا لأى شىء آخر انه يريد أن يعرف ويجرب الحياة مع الآخرين فى البيوت وخلف الجدران ومع أى امرأة كانت .. المهم أن تكون هـذه المرأة من المدينة .. وقال لنفسه أشعر طيلة عمرى بأنى رجل حقير ليس لى أية قيمة واليوم لأول مرة فى حياته أدرك أن له قيمة .. وجاءته الأم تعرب له عن سعادتها برؤيته وصافحت ابنتها وخرجت ... ...

ولهث عبد اللطيف حين طلعت عليه المرأة وهى شـبه عارية .. انبهر وتلعثم وأثير ... وأخذته من يده .. الى غرفة بها سرير ودولاب وأجلسته على مقعد صغير قائلة :

ـ اخلع ملابسك حتى أعود اليك ..

وبدأ يخاف لكنـه خلع حذاءه .. وقال لمـاذا أخاف ..

ان هذا فراش وهذه امرأة وهذا بيت .. من أى شيء أخاف ..

ـ يا خرابى يامه ..

ودخلت عليه تغنى وترقص .. وانتشر فى الغرفة عالم غريب اختلط فيه العطر مع جسدها الذى يتراقص ويلتوى ويتمايل بلا خجل .. وكانت عيناه تبرق من الدهشة .. وفى لحظة أظلمت الأنوار حول البيت وسكنت الحركة المؤدية اليه .. وجاءت أصوات المدينة البعيدة .. أصوات متقطعة تحمل موجات الهواء الساخنة .. وفى لحظة أخرى انقطعت كل الأصوات البشرية حول البيت .. حتى صفير العربات من قريب أو بعيد .. لحظة شاملة جاءت بالصدفة فأى شيء يتعلمه عبد اللطيف هذه الليلة .. ولما صرخت المرأة آخر الليل كان لطفى يسقط على فراش ناعم من كثرة التعب الذى ألم به .. ومن سذاجته أنه فى الصباح عندما تقلب فى فراشه سعد لأنه على فراش امرأة من المدينة .. كان هذا مبلغ سعادته الذى تناها كثيرا ..

ومرت الأيام ولم تجد المرأة غير لطفى ولم يستطع عبد اللطيف أن يبتعد عنها يوما واحدا .. وهبط حقد عبد اللطيف على سلامة ومزق التقرير الذى أعده عنه وكان ينوى تقديمه الى رجل المخابرات .. وفى يوم حدث سلامة عن حكايته مع المرأة ونصحه بالزواج منها لأن هذا حرام .. الا أن لطفى لم يستطع مفاتحة المرأة فى ذلك اعتقادا منه بأنها ليست امرأة ترضى بالزواج .. وفى الوقت الذى كانت تتمنى الزواج منه

لو كانت حرة استدعيت الى أحد المكاتب وقابلها المسئول هناك وبادرها قائلا :

ـ حان الوقت لتقومى بالمهمة ..

ناهد ـ قمت بسهام كثيرة .. هذا الكانى غلبان أتركوه فى حاله ..

بصق الرجل فى وجهها :

ـ يابنت القحبة هاتشتغلى مدرس ..

صرخت ناهد قائلة :

ـ انهم مساكين قاموا بخدمتكم وفى النهاية تقتلوه .. أليس له أهل أم وأب الرحمة .. الرحمة ..

الرجل ـ هذا عملى الذى أقسمت من أجله .. هذا وغيره معه بعض أسرارنا فى العمل والتعامل .. نحن لا نريد أن يذهب بها الى بلده .. انتهت مأموريته تالنسبة لنا ولم يعد يقدم لنا شيئا جديدا .. هو بالنسبة لنا أحد العوامل التى استهلكت وعلينا التخلص منه ..

ناهد وهى تاسح دموعها :

ـ تخلصوا منه .. أمامكم .. أحضروه واعدموه ..

الرجل ـ لابد من ترتيبات واجراءات وأوراق واتهامات بالملف .. لاستيفاء الأرشيف ..

ناهد ـ وماذا يعنى هذا وأنتم تملكون كل شىء .. لا أحد يسألكم أو يحاكمكم .. أو يراكم ..

الرجل ــ الوطن فى النهاية .. ألم تقرأى شيئا هل نسيت ألم تتعلمى ..

ناهد ــ أبكى على انسان فى داخلى أشعر أنه يعدم ..

الرجل ــ ياقحبة لقد أتينا بك من مواخير المدينة ..

ناهد ــ كنت حرة عندما أذهب الى هذه الأماكن .. وكانت حريتى لها أبواب .. أذهب اليها وقتما أريد وأغادرها كذلك .. لكن حريتكم .. وسكتت ..

الرجل ــ لولا ان هناك بعض العمليات ستقومين بها لأعدمتك اليوم ..

وأغمى على ناهد ووقعت على الأرض ترفس وتضرب الأرض بيديها فقام الرجل وأحضر الماء وسكبه على وجهها ورأسها وتركها .. ثم نادى على رجل ضربها على وجهها بيده حتى أفاقت من غيبوبتها ..

وأخرج ورقة من مكتبه وقرأ عليها أسماء :

عبد الرحمن محمود . ثروت قلقاس .. عماد محى الدين .. عبد العظيم أبو شاطية .. عبد الحميد السيد .. حداد الصاوى .. عبد اللطيف يحى .. أحمد حلمى ...

ــ هل أعددت التقارير عن هؤلاء ..

ناهد ــ كل التقارير عن هؤلاء عدا عبد اللطيف يحى ..

الرجل ــ وماذا تنتظرين يا .. بلاش كفاية .. أسبوع واحد أحضرى كل التقارير عنهم حتى تنتهى منهم ..

هزت رأسها قائلة :

ــ هذا سهل .. سوف أفعل بعد يومين فقط أكون .. أكون .. و .. ومتى يكون دورى ..

الرجل ــ أنت ابنة الوطن .. لا .. لا يامعوده .. (يعنى لا يا امرأة) ..

ناهد ــ هل تعتقد أنى عبيطة .. أين ايمان طربيه .. عالية زيدان .. ايمان العبيدى .. نوال مصطفى .. فوزية محمد .. أليس هؤلاء بنات الوطن .. أين ذهبن هؤلاء ياسيادة الرفيق ..

قام الرجل يتمشى فى الغرفة وتطلع عبر النافذة وأشعل سيجارة ورجع نحوها يقول :

ــ هذا مصيرنا جميعا ..

ناهد ــ وأنت أيضا ..

الرجل ــ وأنا أيضا .. كفى .. كفى .. وجلس على مكتبه يبكى بصوت مسموع ..

وقال باكيا على عمره كله ..

ــ مم كانت تلك الفتنة .. فتنة ألمت بالمجتمع كله .. هل كنا على حافة الكفر وأعمالنا كانت سيئة فألقى علينا الفتنة من هؤلاء القوم .. هل هى نار اندلعت وكوت كل بيت وحرقت

الشـوارع والأزقة وأكلت جدران البنايات .. اكتوت العقول وأصبح الناس عملاء فى بلادهم يعملون ويعبدون ويقدسون رجلا واحدا .. لقد ساقهم الى ذلك .. أى معتقدات خرجت علينـا من باطن الأرض كأنها اللهب الجبـار أو الأفعى الحمـراء .. فلا معنويات ولا روح ولا عقـل يفكر حتى أن يتوهم النـاس شـيئا قد يرحمهم .. حتى هذا الوهم غير موجود .. هل هى ضروب الشقاء انشقت فى الأرض تلتهم الجميع .. وسكت ..

ورفعت عينيها نحـوه مندهشة وسكت الصوت قليلا .. فبادرته قائله :

ـ أصحيح أنت أحد الرفقاء فى المدينة وهل يعانى أحـد منهم مما قلت .. من الذى أرغمك أن تكون رفيقـا .. هل أصابك هذا الجنون مؤخرا ..

عوض ـ كانت بيوتنا فقيرة لكن أعمالنا فيها طيبة ولم يكن ببيوتنا أى معتقدات دنيوية وضيعة .. كنا جميعـا نصبو الى الغنى أو ايجاد الهوية أو الحصول على عمـل يدر موردا جديدا للحيـاة .. كانت الحاجة ساحة لأن يلتقط منها المـارد هذه الكوادر التى تمثل الأركان لاقامة نظام بأكمله ..

ناهد ـ صدقنى الحاجة هى الحاجة فى أى زمان ووقت .. المسألة أصلا بيوت متماسكة .. ومازال فى بلادنا حتى الآن

بيوتا رغم الحاجة أشد صلابة .. المتهالك يتهالك ولو كان غنيا والمتماسك يتماسك ولو كان بيته خالياً من بلغة خبز ..

عوض ــ أقسم لك أنى من بيت طيب .. لكنى فى لحظة عقت أبى فغضب على .. وغضب الله على فارتميت فى أحضان هذا الحزب وأنا شاب صغير ..

ناهد ــ أنا ياسيدى الرفيق لا أعرف لى بيت .. فذهبت الى الملاهى الليلية لأقيم بيتا من طوب وحجر ونوافذ و .. ذهبت الى هــذا الطريق وأنا حرة .. أعاشر الرجــال وأنا حرة .. ثم جاءت الليلة التى خرجت فيها مع أحد الرجال .. وكان رفيقا يحفظ تعاليم الحزب عن ظهر قلب .. منذ ذلك اليوم وأنا لست حرة .. فاذهب الى الملهى بأوامر وكذلك أخرج منه ولست حرة الآن أن أهجر هذا الطريق .. فعلى الآن أن أطيع وأهتف وأشرب كأسا مع هــذا وأنام مع هــذا .. كل ذلك ينصب فى كأس واحد لمعرفة اتجاهات الناس وميولهم و .. من يومها وأنا معتقلة .. صــحيح لست فى ســجن لكنى اعتقلت اعتقال الحياة .. ذهبت الحرية عنى وكبلتنى قيود الجند الصدئة ..

عوض ــ صدقينى وأنا جالس أعمل ســواء فى الليل أو النهار أشعر بأنى أصنع النار لتلتهم البشر حولى ولا أعرف لهذا العمــل أية قيمة غير المعتقدات المهترئة والحساسة الجوفاء .. الهــواء تلوث والمــاء كذلك بأناملهم القذرة .. لدرجة أنى لا أتصور أن هناك انسانا نظيفا فى هذه المدينة كلها ..

ناهد ــ أنا مومس لكنى أعرف أن الله حق وأنى قد عصيته وأود وأنا فى شدة أعمالى السيئة أن أذهب اليه لينقذنى من الشقاء الذى أنا فيه .. ففى احدى المحاضرات قالت لنا رفيقة تعتلى منصبا رفيعا :

ــ أين الله ــ كنا فقراء فلم نره لينقذنا .. ماذا فعل الله لنا .. لقد جاءتنا يد عباس فمسحت عنا الحاجة والفقر ..

وقام الرفيق وأمسكها من ذراعها يحاول تهدأتها وأخذ يسوقها الى أحد المقاعد لتقعد وتكف عن صراخها وقال :

ــ اهدأى بالله .. ما يعتمل فى صدرك يعتمل فى صدر الناس جميعاً .. لكننا نخاف الموت الرهيب وننتظر الصاعقة من الله عليهم .. ان أقدام الشعب ستدوسه فى يوم .. أعرف أن أقدام الشعب حافية والأرض مملوءة بالشوك ..

ناهد وهى تهز رأسها يأسا وقنوطاً :

ــ لو كانت أقدام الشعب حافية لكان ذلك أمرا محتملا .. ياسيدى ان رؤوس الناس جميعا خرج منها عقلها .. يعنى رؤوس الناس أيضا أصبحت حافية .. تجرد الناس من كل شىء فأى شىء فى المدينة لم يعد خربا .. وسار عوض الى أحد الأركان وشد ستارة تحجب هذا الركن عن الغرفة وقال :

ــ هل ترين هذا المعبد .. .. وكانت سجادة قديمة

للصلاة مفروشة بالأرض .. .. هـذه حياتي الحقيقية بعد أن رأيت الكفر بعيني وصنعته بيدي معهم .. الآن أحمـل أفكارا نبيلة في صـدري ولكني الى متى .. ياناهـد اذهبي وافعلي ما تريدين أنت حـرة .. أنا من اليـوم صـورة وليفعلو بي ما يريدون ..

قامت ناهد من قعدتها واتجهت نحو الباب وقالت :

ـ ليس من السهل تصبح الحرية ؟ ان كلمة منك لا تعني شـيئا آو من غيرك ..

مازلنا نخاف والخوف أكبر مسـاحة في بلادنا .. وأنت لا تستطيع أن تحرر نفسك حتى تعتقد أنك تمنحني الحرية .. ان الموت المهان الذي يصنعوه أفضل من الحياة بهذه المهانة .. .. وانصرفت ..

ومرت عدة أيام واعتقل عوض ابراهيم وناهد وتم اعدامهما في أحـد الجبال التي تحتضن المدينـة .. لقد كان عبده البر وكيل الادارة في هذا المبنى يتصنت عليهم وقدم شريط التسجيل للحديث الذي دار بينهما الى الجهات المختصة .. انهم جميعـا يصعدون طريق الانحدار ..

ولمـا كانت ناهـد تمر عليـه في الحانوت بين يوم وآخر لتضرب له موعـداً يلقاهـا فيـه .. واليـوم هـو في عـدد الأيام أربعـة لم تعـرج عليـه .. في اليـوم الخامس ذهب الى بيتها يطرق باب السور ولم يرد عليـه أحد وتمشى حول

البيت وعاد مرة أخرى الى الباب .. فسمع وقع أقدام تقترب وطل من الداخل وجه امرأة فتبينه ولم تكن ناهد فبادرها قائلا :

ـ ناهد هنا ..

السيدة ـ من أنت ؟

ـ عبد اللطيف ..

ـ أهلا بك .. تعال ..

وتردد قليلا ودخل .. وتقدمته وسألها ثانية :

ـ ناهد بالداخل ..

المرأة ـ أنا وناهد واحد .. وتعثرت خطاه واندهش من كلامها وقال :

ـ من أنت اذاً ..

المرأة ـ أدخل أولا ..

وتركته وقعد بالصالة ودخلت احدى الغرف واندهش أكثر عندما رآها تروح وتجيء فى الغرفة شبه عارية .. وكان يراها من ضلفة الباب المفتوحة .. وتأكد له أن ناهد غير موجودة عندما استنشق عطرا ينبعث عن غرفتها .. وجاءته ترتدى روباً مفتوح الأزرار وترتدى شورتا وسوتيانا وبقية الجسد عار يفجر لهيب الشهوة فى أى رجل .. وفتحت النافذة قبل أن تقعد مطلقة زفرة تشكو حرارة الجو ولهثت وهى تقترب منه تعبث فيها رغبة وثورة جامحة .. ونظرت اليه فى تحد .. كانت امرأة شديدة البياض ذات جلد أملس ناعم وعيونها السوداء ضيقة

خالية من الكحل .. وشفتاها مبترمة حادة كانت تمضغ أطراف كلامها أو تضغط عليه محاولة التحدث اليه باللهجة الكانية :

أهلا وسهلا .. جيت البيت كتير .. أنا صديقة ناهد .. ازيك فى البلد دى .. أجيب لك أكل دلوقتى .. تشرب شاى .. أجيب لك ايه .. طيب كل مهلبية ..

وقال لها متسائلا تساؤلا يهز ثنايا صدره :

ـ أين ناهد اذاً ..

المرأة ـ غائبة لمدة أسبوع .. أين ذهبت لا أعرف .. انها تحبك فارسلتنى لك ..

عبد اللطيف ـ هل أنت تركية ..

المرأة ـ لا

عبد اللطيف ـ فارسية

المرأة ـ لا

عبد اللطيف ـ من أين ..

المرأة ـ من أمى ..

عبد اللطيف ـ ومن هى أمك ؟

المرأة ـ وماذا يهمك من أمى .. وأشعلت المرأة سيجارة وألقت بعلبة الدخان عند قدمه فانحنى يلتقطها وقالت :

ـ اشعل سيجارة ..

عبد اللطيف ــ لا أدخن .. واعتدل فى جلسته ومسح وجهه بمنديل وقال :

ــ من أين أتيت .. أهذا بيتك أم بيت ناهد .. من كانت ناهد ..

المرأة ــ أتيت من المدينة وهذا بيت المدينة .. وناهد ابنة المدينة .. كل شىء من مدينتى ..

عبد اللطيف ــ كل شىء عندك من المدينة ..

المرأة ــ وماذا تريد منى كامرأة .. أنا كل شىء عندى منبعه ومنتهاه المدينة .. أنا امرأة المدينة .. هكذا علمونى .. المرأة ليس لها من سبيل غير أنها امرأة .. فهى ليست أم وليست انسانة وليست مخلوقاً له كيان .. هى امرأة فى الفراش .. مثل الحرية ابنة حرام .. مثل عباس قريب الله .. هكذا علمونا ..

عبد اللطيف ــ وصلت أن يكون قريب الله ..

المرأة ــ وله أسماء كالأسماء الحسنى ..

عبد اللطيف ــ ومن أنزلها ..

المرأة ــ هو عملها لنفسه ..

عبد اللطيف ــ ليتنى أعود الآن الى بلادى ..

المرأة ــ لن تستطيع ..

عبد اللطيف ــ أنا حر فى أن أعود أو أبقى .

المرأة ــ لن يتركوك تذهب .. انتهت مأموريتك معهم .. أنت واحد حقير من كان .. وخائب وقاتل .. ألم تقتل من أهلك فى هذه المدينة .. ان ناهد كانت خائنة وتأخرت عليك كثيرا .. لقد ذهبت ..

وتلوى جسده من تحته وجثا على ركبتيه يعوى ويبكى .. قائلا :

ــ أنا منتمى .. غلبان .. يحيا عباس .. وجرى على أربع نحوها يحاول تقبيل قدميها .. ووقفت المرأة عند جسده الملتوى وضربته بكف يدها على رأسه وذهبت عنه قائلة :

ــ أنت واحد حقير .. ماذا قدمت من الناس الأبرياء .. لم ترحم أحدا من مدينتى أو مدينتك خاصة فى العامين الأولين لقدومك .. هل شبعت الآن ..

قعد على مؤخرته يهذى .. أنا حقير آه .. أنا .. فى عرضك فى طولك ..

نظرت اليه المرأة شــذرا :

ــ ليس بيدى شىء أنا واحدة ستدور عليها الدوائر .. ان رصاصات الرأس فى ذلك الجبل ستكون لقائى فى يوم .. أنا وأنت أعــواد محترقة زرعوها ويحصــدوها فى وقت قد رســموه بدقة ..

عبد اللطيف يسكت قليلا عن بكائه :

ـ وما الحل ياسيدتى ؟

المرأة ـ سيقولون عنك .. مناضلا بارا .. شهيد الحرية مات من أجل القومية .. هكذا يعيش الأبطال ويسمون أبطالا عندما يموتون أو يعدمون ..

عبد اللطيف ـ كنت وفيا أمينا صادقا معهم ..

المرأة ـ هذه قمة العمالة .. لم تكن الا مرشدا .. عين ..

وأخذ يلطم خديه ويضرب رأسه ويرتمى هنا وهناك والمرأة تطارده فى كل ركن .. وقام نحو الباب فوجده موصدا وذهب الى النافذة يفتح مصراعيها فأمسكت به وبصقت فى وجهه ودفعته نحو الأرض قائلة :

ـ من أنت ومن أبوك .. أريد أن أعرف بيئة المرتزقة الأولى ..

عبد اللطيف ـ ومن أدرانى أنى كنت مرتزقة .. أنا أعمل من أجل المال ..

المرأة ـ من أجل هذا تستحق الموت ..

عبد اللطيف ـ أنت مثلى .. قالها وكأنه يواجهها ويدافع بها عن نفسه ..

المرأة ـ قدمت تقارير جوفاء لم أضر بأحد فيها ..

عبد اللطيف ـ وكيف طال عمرك حتى الآن ..

المرأة ـ كنت أدفع بجسدى الفراغ الناقص عن عملى ..

وســاد الصمت ولاذ عبد اللطيف بالمقعد وجلست قبالته ومضى بعض الوقت ثم بادرته قائلة :

ــ صارحنى من أنت ..

عبد اللطيف ــ كان أبى يعمل عسكرى بوليس .. لم نكن نتذوق اللحم الا كل أسبوع .. وكان اللحم مكون من الكرشة تطبخ على خبيزة وطبق من الأرز عملته أمى من زبدة نشحذها من حمالتى ستيته الصاوية وهى سيدة غنية فى قريتى .. وكانت أمى تسرق الثوم والبصل من أحد التجار يدعى محب رمضان كان له مخزن قبالتنا .. ولما كان أبى يسألها من أين اتت بهذه المواد كانت تقول له .. كل واسكت .. وكنت أحقد على كل أغنياء قريتى .. ولولا أن أمى كانت تمتهن مهنة الكب لتسولنا طعامنا من كل بيوت القرية .. واقتربت المرأة منه تنصت باهتمام بالغ قائلة :

ــ كب .. ايه كب ..

عبد اللطيف ــ كل رجل أو امرأة يعانى من آلام برديه فى ظهره تقوم أمى بعلاجها بالكب ..

المرأة ــ كيف ..

عبد اللطيف ــ عبارة عن آداه من القوالح .. يعنى قولحة لها قاعدة من الطين الناشف وتغمس هذه القولحة فى الكيروسين وتشعل بعود ثقاب فتتوهج النار منها وتثبت على ظهر الرجل

ثم تغطى بإناء مستطيل من الفخار فيمسك هذا الإناء بشدة فى ظهر المريض فيعمل الهـواء المضغوط مع قوة النار بخارا قويا يمتص الألم بعدها تنزع أمى هذا الإناء بصعوبة من فوق الألم وتعمل هذه الكبة خمسة عشرة مرة فى الليلة .. ليلة بعد أخرى حتى ينتهى الألم ..

المرأة ــ علاج طبيعى لآلام البرد ..

عبد اللطيف ــ نعم .. نعم .. هل تريدين أنا مستعد لعمله لك ..

المرأة ــ كم كانت تتقاضى راتب عن ذلك ..

عبد اللطيف ــ بتاو وجبنة وخبز طرى أحيـانا وباذنجان وخيار من الحقل .. مواد طعام ..

المرأة ــ وهل كانت زوجة الرجل الغنى توافق على أن تقوم امرأة أخرى بعمل ذلك لزوجها ..

عبد اللطيف ــ ان لرجال القرية سطوة فى بيوتهم .. هؤلاء الرجال الأغنياء ..

لقد كانت أمى تفعل أكثر من ذلك لهؤلاء .. كانوا يطلبونها لتدليكهم أحيانا .. يعنى مثل المساج البلدى .. وكان الدهان المستعمل هو الزيت الدافىء ولمـا سألها أبى مرة فى خنوع أن تكف عن هذا العمل لأنه قريب من الزنا .. كانت تقول أنه ..

بل ريق .. وليس زنا .. وأحيانا يطلب منها بشـــدة الامتناع عن هذه الأعمال الملتصقة بالرجل .. كانت تقول له أيضاً :

ـــ وكيف أطعم هؤلاء .. كل واسكت .. جتك الغم ..

ومرة كانت أمى مريضة فذهب أبى ليقوم بعمليـــة الكب لرجل غنى يدعى عبد المنعم دردير فقال له :

ـــ من قال لك أنى سأقبل العلاج منك .. أنت عسكرى وبس .. اطلع من القاعة حتى لا أقتلك عندما تشفى فج النور ارســلها ..

المرأة ـــ فج النور مين ..

عبد اللطيف ـــ أمى اسمها .. فج النور ..

ابتسمت المرأة وقالت :

ـــ من أجل هذا وقعت فى أول خطوة لك بالمدينة ..

عبد اللطيف ـــ آه لو رأيتينى عندما تدفق المـــال بين يدى .. ان أهلى لو جاءوا الى هنا لمـــا عرفونى .. فعلت كل شىء من أجل المـــال وعملت كل الأعمال الســـيئة الموجودة فى شارع الونيس .. كنت كالقرد أو الشيطان الأسود فى ثوب رجل .. كنت أريد أن أخدع العالم كله من أجل نفسى ..

وانتصف الليل ومازالت المرأة عارية وعبد اللطيف يعوى بذكرياته وشـــعر ببرودة تجرى فى جسده ومرارة فى حلقه .. والمرأة لا تشعر أنها امرأة ولا هو يشـــعر نحوها بذلك .. فهل

هى جلاد جاء ليقتله أو هى الموت نفسه .. وتهيأ له أنها قابضة أرواح وتساءل لماذا اذا جاءته عارية واندهش أنه برغم جمال المرأة وصدرها الذى يشبه صدر فتاة عذراء فانه لم يشعر نحوها بأى شىء البتة .. كان ينظر اليها فى خوف وكأنها رجل مخابرات يقوم بالتحقيق معه .. انها نهاية النساء بالنسبة لكل الرجال الغرباء الذين يقتربون من معاش خدمتهم .. هى النحلة التى تمتص رحيق الحياة من كل رجل خائن .. لقد اختاروها لهذا الدور لأنها امرأة وطنية جسدها يصعق الحياة فى حياة الرجال المزيفين .. واهتزت المرأة فجأة وترنحت وسقطت على الأرض .. انه لا يعرف لماذا سقطت ظن أنه من التعب أو أنها حالة اغماء بسيطة .. فتركها وفكر فى الهرب اذا أغمى عليها حقاً .. لكنه فى لحظة قال : ماذا بك .. ماذا بك .. وقالت سناء لا شىء .. أبداً .. ولم يكن أحد يدرى فى العالم أنها فى منذ يومين تجرعت من زجاجة زرنيخ تناولتها من صيدلية وصاحبها فى غفلة ووضعتها فى حقيبتها وعندما عادت لبيتها .. تجرعت منها ما يكفى وزيادة .. وشعرت بدوار حقيقى يلم بها وسقطت ذراعاها هامدتان باردتان حول الجسد المرتمى على الأرض .. وفغر فاها فجأة وتأوهت قائلة .. ليتها تكون النهاية .. وابتسمت ابتسامة باهتة ساخرة .. أى تسجيل أقوم به للكانى .. وماذا قال أو سيقول مادام سيموت فى كل الأحوال أى دور أقوم به لهؤلاء اللجائين .. أنا فى حاجة لمن يسمعنى أو يسجل لى .. يا عبد اللطيف اننى أموت .. أموت ..

لقد تناولت السم من يومين .. وجرى نحوها .. نعم . نعم ماذا تقولين .. ياربى .. لماذا .. أفضل لى أن أموت موتة واحدة .. أنا لا أحب الموت الذليل .. وأنا فى كل الأحوال كافرة ومهانة وذليلة وأحط ما فى الدنيا من بشر وحيوانات .. تل أنا حشرة حقيقية .. صدقنى أشعر براحة وأنا أقبل على الموت .. وقال عبد اللطيف .. تعال .. هيا أحملك الى طبيب .. فقالت .. لا .. أى طبيب .. لا لقد سرى كل شىء فى جسدى ورأسى لا فائدة .. أفضل أن أموت موتة هادئة .. دعنى واسمعنى وارقبنى وأدعولى .. واستلقت تماما على ظهرها دون أدنى حركة وكأنها تسمرت بالأرض .. وثبتت عينيها فى السقف نحو نقطة واحدة فيه وكأنها تحاول أن تتفحص شيئ وكانت العين غير قادرة على الحركة .. ولم تنبس بكلمة وكان صدرها يعلو وينخفض وكأنها تلهث .. وخرجت كلمات من فمها مبعثرة .. تشرح وتبرر كيف سقطت وارتمت فى أحضان المخابرات وكأنها تعترف بأخطائها وتطلب المغفرة .. وكان يحاول التقاط بعض الكلمات .. لقد تعذبت كثيرا .. وأخلصت وكنت سيئة فى كل شىء .. كنت دائماً نادمة غير راضية عن ما أفعله .. كنت جبانة مسوقة مهدمة ضائعة .. وانفجر النحيب الضعيف الواهن .. كانت تشعر أن الجدران تنهار حولها والسقف ينزل فوقها كالجبل ولم تشعر بشىء غير العالم الذى ينهار عليها ويخنقها والأرض تنفلق من تحتها .. وهوت وكأن انفجاراً كنار تحترق تفجرت فى رأسها .. وتراقص النور فى اللمبة الكهربائية

التى تضىء البيت وانشق الظلام فى الحيطان حولهما .. وفجأة تراكمت رغاوى خرجت من فمها وتكومت على ذقنها ونزلت على جيدها .. ولم تشعر المرأة بشىء وفى لحظة تمرغت الرأس يمنة ويسرة وسقطت رأسها بقوة وشهقت ..

وقام يستغيث بالله يقلب فى رأسها ويمسك بيدها .. انه لم يرى أحدا مات من قبل .. هل ماتت .. انها لا حراك فيها .. ياسناء .. سناء .. وضم الروب فوق جسدها ودخل غرفة وحمل شرشفاً وغطاها وقعد جانبها يبكى .. يبكيها .. ويبكى نفسه .. يبكى الناس جميعاً .. ودق الهاتف فازداد خوفه ولم يرد .. وقام يتجول فى البيت يفكر فى الخروج منه .. لكن الى أين والساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل .. ودق الهاتف ثانية ورد عليه قائلا :

ـ هالو ..

ـ أبو على ..

ـ مين أبو على ..

ـ من أنت .. قالها بغلظه ..

ارتبك عبد اللطيف وقال ـ عبد .. عبد اللطيف ..

ـ رد يابن الج .... أين سناء ..

ـ سناء .. سنا وسقطت السماعة من يده ..

وتركها .. ثم عدلها .. فدق الهاتف ثالثة ..

ـ هالو ..
ـ انتظرنا ..
ـ من أنتم ؟
ـ اخوانك ..
ـ ماذا تريدون منى ؟
ـ ستذهب معنا نحجز لك شقة ..
ـ شقة ..
ـ لا أريد شقة ..
ـ يعنى .. لا .. لا أبدا .. هو ..

ـ لا تحاول أن تهرب من سناء أو أو .. لماذا لا ترد هى ..
ـ انها .. انها ..
ـ ماذا ؟
ـ لا أبدا .. نائمة ..
ـ انتظرنا .. لماذا لم توقظها ؟
ـ انها نائمة .. وترفض أن ترد ..
ـ والله لندرعها الدم ..

ـ بس .. بس أصل .. .. كان يريد أن يقول أنها ماتت .. ولكنه آثر أن يتلعثم ولا يقول شيئاً ..
وتهيأ له أن الاخوان كثيرون حول البيت وفتح النافذة

قليلا ليراهم .. ليرى الموت حياً أمامه .. فلم يجد أى اخوان .. لكنه تهيأ له أنه يرى أشباحاً تلعب حول البيت .. وكانت الظلمة شديدة حول السور .. وكان الأفق البعيد يلوح بأضواء باهتة مخنوقة .. وسمع صفيراً حاداً .. انه صفير المصانع الخربة القديمة حول المدينة .. وارتعد من الخوف الذى يحيط به وشعر بأن عقله فى رأسه قد خرمه مسمار أو دخل فيه شقفة من حجر .. كانت الأرض رطبة .. وارتجفت روحه فوق شفتيه وشيئاً بعد شيء من الخوف والهلع أمسك رأسه بيده وفضل أن يرتجف تحت غطاء بجانب المرأة المسكينة .. وكأن شيئاً راح يداعب روحه .. مثل شيء من عالم آخر يتوق اليه .. وراح يعلق نفسه فى هذا الذى يشده عليه يرحمه من الخوف ومن الاخوان القادمين .. ولف الغطاء فوقه .. كان شيئاً كالملاريا قد ألم به .. وقال ياربى أسلمت نفسى اليك .. وراح فى غيبوبة .. يتهته بكلمات لا معنى لها .. وتعطلت لغة الكلام المحموم لحظة .. ان مفتاحاً يدور بالباب ودخل ثلاثة رجال البيت يضرب كل منهم الجسدين بقدميه .. وكشفوا الغطاء عنهما فاذا بعبد اللطيف يتلوى وسناء لا حراك فيها .. وضرب أحدهما عبد اللطيف على رأسه وفى لحظة وقف بين يديه .. ورفع الآخر ساقيها بيديه لأعلى ليركب فوقها .. فاذا بالساقين باردتين جامدتين لا حراك فيهما .. وعوت صفافير المصانع الخربة ثانية فسقطت الساقان من بين يديه .. كانت عينها ترنو الى لا شيء ..

وهرول نحو عبد اللطيف يضربه بقسوة على رأسه ووجهه قائلا:

ـ قتلتها يابن الوسـ ....

ـ لا .. لا والله .. هى التى ماتت ..

.. وضربه آخر .. من نفسها .. ماتت لوحدها ..

وضربه الثـالث .. لمـاذا قتلتهـا يأكافى يابن الشر

وصرخ عبد اللطيف بتوسل ..

ـ أنا لم أقتلها انها ماتت وحدها ..

أحدهما ـ وحياه أمك .. هاذ .. هانحط فيك .. الدنيا .. وحاول النهوض لكن الرجال الثلاثة نزلوا عليه بالضرب المبرح على رأسه ففضل أن يكون جاثياً على ركبتيه كخير موقف للدفاع عن دماغه وعينيه الذى كان يطق منها الشرر .. وفجأة تورمت عيناه واندفع الدم من نقطة فى رأسه من أثر حذاء أحدهم .. ولمـا انهارت مقاومته ارتمى على بطنه ووضع كفى يديه على رأسه يتأوه ويجأر .. آه .. معلش .. ارحسونى فى عرضكم .. لست القاتل .. وفى لحظات دخلوا الغرف واحدا بعد الآخر وألقوا نظرة على الحديقة وأحكم أحدهم قفل المصاريع والأبواب وآخر ضغط على عينيها بأصابعه حتى ارتخت أجفانها ولمـا زعقوا فيه بالنهوض لم يستطع أن يقف مرة واحدة لقد وقع مرتين الى أن وقف وهو مقوس الظهر محاولا اخفاء وجهه بكفيه وحرصه منه على مقاومة ضربة فى وجهه ورأسه وعينيه التى انتفخت من قوة الطبل عليهـا .. وتحدث أحدهم فى الهاتف .. ثم قعدوا

قرب الباب الداخلى يتناولون طعاما أحضره أحدهم من المطبخ وضحك الثالث وقال يسخر من الكانى .

ـ ستشرب فى الفندق كثيراً من العرق ..

ورد عليه الثالث :

ـ لقد آكل كثيراً من السمك وهذا يكفيه حتى يحتفل بعيد ميلاده ..

ومر بعض الوقت وعبد اللطيف يضع كفى يديه على رأسه .. كل شىء فيه يرتعد ويتأوه ودماغه تثق بأنه لن يرى الحياة مرة أخرى .. وأن أمه وأباه وزوجته وطفلته والبيت الذى شيده بكفاحه وعرقه كل هذا لن يراه .. ووجد نفسه فى قفص حديدى مقفل غطى بقماش أسود ثقيل .. وكاد يصرخ كى يسمعه منقذ .. لكنه لا يقدر على ذلك فلا أحد يسمع الموتى .. وتذكر أنه كان سبباً فى قتل الآخرين وأن ذلك بعض من عمله .. وأدرك أنه كان يقوم بعمل يؤدى الى اهلاك الآخرين .. لقد كان غبيا وسفاحا وقذرا .. عرف الآن ذلك ووعيه تماماً .. كان يؤدى عمله دون أن يدرك نتائجه .. وسمع صوت عربة .. ودخل أحدهم وحمل سناء على كتفيه ومشى بها خطوات ولحقه رجلان غريبان يحملان نقالة مما يعنى أنهما رجال مركبة الحانوتى .. وسمع وابلا من كلمات التقريع والقذف للمتوفية من الرجال الثلاثة .. وقادوه بقسوة أن يتبع طابور النقالة واتخذ مكانه وراء نعش المتوفيه وقلبه ينزف حزنا وألماً حتى أن دماغه عجزت

عن تفسير ما يجرى .. لكن الذى تأكد منه تماماً أنه ذاهب الى مصيره وأن أوقاتاً شديدة السواد سوف يقضيها وأخرى من العذاب سوف يمر بها قبل أن يموت .

وأدخلوه عربة مرسيدس بيضاء ورفسوه بأقدامهم واحداً بعد الآخر ليقعد فى الخلف وأصبح الرجال أربعة بقائد العربة .. وجلس أحدهم فى الأمام واثنان معه هو أوسطهم .. وفى لحظة تقدمت المركبة تاركة رجال عربة الحانون يجهزون عربتهم للإنطلاق الى أحد مدافن المدينة .. ولما كانت الحافلة الصغيرة تشرف على الدخول فى خارج المدينة ربطوا عينيه بعصابة من قماش أسود وزعقوا فيه ليقعد تحت فى قلب السيارة .. وانطلقت المركبة خارج المدينة تمرق عجلاتها فى الأرض كما يمرق المنشار فى الخشب .. ثم دخلت فى الخلاء .. تركوا المدينة خالية فى وقت كانت المدن المجاورة لهذه البلاد فيها الناس يذهبون لصلاة الفجر .. كان قليل من الناس فى هذه المدينه يذهبون الى الصلاة .. واذا ذهبوا فانهم يلتصقون بالجدران ويهرعون من السلطان .. وتم دفن سناء فى مقابر الشهداء ودونت فى سجل الشرفاء .. ودوت الأناشيد فى هذا الصباح مثل كل يوم دوت بالأناشيد الوطنية للعدالة والحرية وبالدعاء للمهيب بطول العمر..

كان كل أهل المدينة يسبحون كل يوم فى العلنى بالحمد والشكر تحت أقدام أصغر رجاله .. اذا كانوا يريدون أن يكون لهم غد .. وهذا هو المستقبل ..

كل شيء كان ساكناً الا من الظلام بعد أن فكوا العصابة التى ربطت عينيه .. كانت الغرفات صغيرة والأسقف خربة والحيطان ملطخة بالدماء وصراخ الأطفال لا ينقطع وبعض النساء تولول وصوت رجال يتأوهون وعلى حصيرة قذرة من الخوص رموا بعبد اللطيف فى صومعة ووجد رجلا يرقد يخفى وجهه ولما تعرف عليه وهو راقد بعد أن انصرفوا ..

قال الرجل :

ـ من أنت ؟

ـ عبد اللطيف .. واحد من الخونة ..

الرجل ـ من كان ..

عبد اللطيف ـ نعم ..

الرجل ـ هل رفضت التعاون معهم .. أم كنت مرشداً ..

عبد اللطيف ـ كنت مرشداً ..

الرجل ـ وهل ظلمت أحداً ؟

عبد اللطيف ـ كنت مخلصاً ..

الرجل ـ يعنى تستحق ..

عبد اللطيف ـ لم أكن أعرف ..

الرجل ـ والآن هل عرفت ..

عبد اللطيف ـ وما الفائدة ..

الرجل ـ أنا سورى لم أفعل شيء كنت أعبر الحدود لكى أعمل .. أمسكوا بى وأنا فى الطريق الى أقرب مدينة .. واتهمونى بالجاسوسية .. مضى على ثلاثة أيام ذقت فيها أشد

ألوان العذاب لكى أعترف .. والله أنا بدوى ولا أعرف أى شىء عما يتهمونى به .. وجئت لأعمل ..

عبد اللطيف ــ ألم تظلم أبداً ..

الرجل ــ لم أتعاون مع أحد فى حياتى ..

عبد اللطيف ــ اذاً ستخرج من هنا .. وسكت برهة وقال له :

ــ ما هو اتجاهك ؟

الرجل ــ يعنى ايه ..

عبد اللطيف ــ ألا تفهم الاتجاه .. كل انسان له اتجاه ..

الرجل ــ أول مرة أعرف هذا .. اذا كان ولابد .. اتجاهى يوم ولدتنى أمى كان الاتجاه المعاكس لعورتها .. وهذا يعنى أن يولد الانسان مؤدبا وخلوقا ويجب أن يكون كذلك حتى يموت ..

عبد اللطيف ــ الاتجاه يعنى هنا شىء آخر معاكس لما تقول يارجل .. اسمك ايه ..

الرجل ــ حلمى غلايينى ..

عبد اللطيف ــ يعنى ايه غلايينى ..

الرجل ــ لا أعرف ..

ومرت ثلاثة أيام لم يذهب عبد اللطيف فيها الى الحانوت .. وبحث سلامة عنه فى المقاهى والفنادق وعند معارفه فلم

يجده .. وكان كثير من الناس يضرب بيده على صدره قائلا :

ياعين أمه .. يالهوى عليه .. خدوه ..... وهاتف ربما في الهاتف وأخبرها فأكدت له بأنهم أخذوه .. هكـذا جرت العادة عندما يغيب أحد فى هـذه المدينة .. الاخوان أخذوه .. لن يعود ياسلامة .. لا تأتى لزيارتى الآن .. أقفل محبس المياه وأفصل الكهرباء عن المحل وأقفل نافذته .. اقفل المحل وانتهى الآن .. الآن .. الق المفتاح فى النهر .. خذ كل النقود التى لديك .. اختفى من المدينة .. اذهب من نزلك .. أقول لك .. اذهب الى السيدة العجوز عند الجسر .. انتظرنى هناك لا تغادر بيتها حتى آتى اليك .. سنرحل معاً .. .. أوصف لى مكانها ثانية .. ووصف لها المكان .. وانتهت المكالمة .. وضرب كل من يعرف عبد اللطيف على رأسـه وصدره ودوى الرعب فى رأس سلامة وفى كل شـوارع المدينة .. كان الناس يهرولون والرعب يعربد من تحتهم .. المـال أقحمهم فى طريق كله هلع ومع ذلك فهم يحبون الشـوك والمخاطر .. والمـال لذيذ مهما كان الطريق اليه .. هكذا يتفوه أولاد كان فى المدينة .. انهم يحفرون من أجله لأنهم جميعاً من حفاة كان .. وقال سلامة لنفسه وكأنه يكابرها ويعاندها عشت فى ملاجىء تحت الأرض هزمنا الصبر فى الجيش أكلنا الضفادع والفئران والقنافذ .. لقد مت وزملائى قبل الموت الأكبر خرجت من الجيش أشلاء متناثرة .. نفس تعبة خربة .. فكيف أكون ضعيفاً أمام هؤلاء هل وقعت

فى براثن الافك .. هل أخذنا حكمدار هذه البلدة جسر يعبر عليه فى أمان .. هل أولاد كان فى هـذه المدينة جسر يعبر عليه نظام بأكمله .. عبر النظام ويعبر معهم أولاد كان الى الحياة .. أقام أولاد كان بيوتهم عند كل حافة من هـذا الجسر .. وهناك أقام الحكمدار متاريسه وتهيأ للنظام القوة والبطش ومن هنا كانت كراهية أهل البلدة لكل أولاد كان فى المدينة انهم يعتبرونهم أعوان الحكمدار .. احتضنهم الحكمدار ليستتر فى عبور جسوره ولم يظلم فى عملية العبور غير أهل المدينة .. وتساءل والشوارع الواسعة تبتلعه فيخترق واحدا بعد الآخر .. هل أهمل أهل المدينة فى شىء حتى يكون هـذا جزاءهم .. ان البيوت الخاوية من ذكر الله يسلط الله عليها حاكما ظالما .. فتهاوت جدرانهم وتهالكت أسقفهم وعاد أبناؤهم جواسيسا عليهم والحيطان الصماء متهمة بالتصنت .. هل يوجد فى أى مدينة فى العالم ناس يخافون من حجارة وأثاث منازلهم اعتقاداً أن هذا الجماد له عيون وآذان ستنقل كل كلمة الى الحكمدار .. هكذا بلغ حجم الخوف فى هـذه المدينة وبالتالى فان أحط انسانية على وجه الأرض صنعها الحكمدار فى هـذه المدينة .. ومن هنا شعر سلامة بأنه لا شىء .. وأنه سيلاقى حتفه لا محالة وأن الدور عليه .. فماذا يفعل وهو فى النزل الأخير من الحياة .. هل يستطيع النجاة .. وقبل أن ينتصف الليل بقليل عاد الى نزله .. وطرق أحد العاملين بابه وسلمه رسالة قائلا :

ـ رجل كانى ليس نزيلا بالفندق جاء وسأل عنك وترك لك هذه ..

وفض الورقة وقرأها ..

عزيزى ـ سلامة ....

علمت أن لك محلا وأنا ابن شحات غريب زلابية من مجيرية البلد اللى جنب بلادكم .. عشمى أشتغل معاك وحياة أبوك عمى الحاج .. ياسلامة ياغالى .. يابن الرجل الطيب .. سوف أمر عليك صباح الغد قبل أن تذهب الى المحل ..

محسوب شحات زلابيه ..

وطواها فى جيبه وشعر أنه سيكون مقصراً أمام هذا الرجل .. ولكنه أراح نفسه قائلا .. من مجيرية من براشيم من أبويا .. ربنا مع الجميع .. وقرر أن يغادر الفندق صباحاً ولما استيقظ فضل أن يقضى وقتا فى استراحة النزل .. تناول فطوره واجتس شايا وجلس رجل بجانبه من كان بادره قائلا :

ـ هل تنزل هنا ؟

الرجل ـ نعم ..

سلامة ـ ماذا تعمل ؟

الرجل ـ فى ملهى ..

سلامة ـ هل تقدم للزبائن ؟

الرجل ـ ادارة النساء فيه .. وجلب نساء جدد ..

سلامة ــ وهل تجيد هــذا العمل ؟

الرجل ــ ان زوجتى واحدة من هؤلاء النسوة ..

سلامة ــ كيف .. كيف تقبل هذا على نفسك ..

الرجل ــ عندما أعود الى مدينتى سأطلقها .. لقد ذهبت الى كان وأتيت بها خصيصاً لجلب المــال .. ان هذه هى الطريقة الوحيدة لجلب المــال الكثير ..

سلامة ــ هذا حرام يا أخى ..

الرجل ــ لا يوجد حرام فى هذه المدينة .. عملت بشرف قبــل ذلك فى غربتى وكان المــال قليلا لم أســتطع أن أفعل به شــيئاً فى بلدى ..

سلامة ــ هــذا مال حرام ..

الرجل ــ لم يعد هناك أحد يســتطيع أن يفرق بين الحلال والحرام .. لقد عجزت عن ذلك فقررت أن أعمــل فى طريق محدد غير مبال .. على أن أفعل كل شىء تدور عليه الحياة ..

سلامة ــ لا أعرف أى شىء حدث لأبناء كان ..

الرجل ــ فى هــذه المدينة أولاد كان من بصقتهم مدينتى .. فمنهم من يجمع حياته بشرف وآخرون بغير شرف .. المحصلة فى النهاية مال ليقيسوا به حياة مادية بأى شــكل .. ان الذين خاضوا الحرب واعتقدوا أنهم يقومون بأعمال مجيدة من أجل المدن .. لمــا ذهبوا الى هــذا العالم وجدوه يحتقرهم وبشكل

بهم .. فما كان من أولاد كان الا أن يأتوا بأعمال منافيه لأعمالهم السابقة .

وفجأة مضى الرجل الى عمله وترك سلامة حائراً يتردى فى أفكاره ولم يأته محسوب زلابية صاحب الرسالة حتى وقته هذا .. وطلع الى غرفته يعد حقيبته ويجمع فيها ملابسه وحاجياته .. ولما جاء وقت الظهيرة دفع حسابه لصاحب النزل وبلعته الشوارع والأزقة ولم يكن يعرف الى أين ..

ولما كانت هند تعبر شارعا واسعا وهى رائحة الى الجامع ثم تمشى فى زقاق ضيق تسير فيه قليلا حتى تجد بناية عتيقة تعلوها مأذنة بيضاء .. هذا الجامع الصغير بناه أحد الأولياء الصالحين فى عهد أحد الخلفاء وفى ركن صغير من هذا البناء الأثرى خصص للنساء .. كانت هند تؤدى صلاتها مع بعض السيدات الطاعنات فى العمر .. وكانت العيون التى ترقب المصلين كافة وخاصة الطاعنات منهن يقولون فى تقاريرهم .. لماذا تذهب هؤلاء النسوة لتصلى .. وهل أخذن من الحياة شيئاً .. ان الفقر يأكل منهن .. فهل يذهبن لطلب الحياة .. لماذا لا يحضرن الى المسئول ليسنحهم بعض الحياة .. ولما سألوا احداهن مرة .. لماذا تذهب لتصلى كل وقت أجابت فى تحفظ .. أنه عملى الوحيد الذى تبقى لى فى هذه الحياة .. وسألوها هل تحب الحكمدار قالت وهى تكذب .. وهل لنا غيره .. ثم استغفرت

الله .. وقالت وهى تبتهل اليه .. اغفر لى فانا فعلت ذلك حتى لا يجد جهوده فرصة لاهانتى .. فاغفر لى وانتقم منه ..

أما هند ابنة الحزب ـ فلم تذهب الى عملها وآلقت به خلف ظهرها .. انقطعت عن كل نشاط .. تحجبت .. ألم تجد شيئا عندنا فذهبت لما هو أفضل .. طبعا لا .. انها فى رأيهم منشقة خائنة ولابد من تأديبها .. ونصحوها بالعودة فلم تعد .. وأمروها بفك الحجاب فلم تفعل .. وطلبوا منها الذهاب الى العمل فلم تذهب .. وسألت ربها أن يشفيها فشفاها وأن يعفوا عنها فعفى .. وأن يدخل الايمان الى قلبها وحدث .. فبصقت موتهم وازدرته .. كانت تخرج فى عز الشتاء يدثرها معطفها وغطاء رأسها يزينها .. كان صوتها دافئا يخرج من ثنايا صدره قوياً .. ينبثق منها سلوك جديد انسانى .. هى انسانية الايمان بعد الزلة .. ثم جاء يوم خرج فيها بيتها كله للصلاة معاً .. وهذا فى رأى الزبانية مظاهرة ضد النظام .. هند وأمها والطفلة وكلهن محجبات هذا سلوك لا يطاق وليضرب على هذا الجمع الغريب الشاذ بيد من حديد .. وفجأة فى يوم دخل أحد رجال الأمن بيتها يرمى بكل شىء تقع عليه عيناه بالأرض يشخط ويبصق ويلعن .. ووقف الثلاثة صفاً واحداً ينظرون اليه فى تحد .. ووجد كتاب الله فى غرفتها مفتوحاً فقفله وأخذه فى يده وذهب الى رئيسه يضع الكتاب أمامه قائلا .. وجدت هذا فى بيتها مفتوحاً فهز الرئيس كتفيه وقال :

لقد زادت الأمور عن حدها .. خذوها مع الكانى اسمه .. اسمه .. عبد اللطيف .. خذوها لترى ما سيحدث له بعدها تلقى بهـا وكفى ..

فهز رجل الأمن رأسه وقال ::

حاضر يا أفندم .. حاضر ..

ولم تبال هند أو أمها أو حتى الصغيرة لقد دخل الايمان فى قلوبهم .. وراحت هند تحدث أمها عن حلاوة الايمان .. وكانت تضم ابنتها نورا فى أحضانها كل مساء وتحكى لها حكايات الصغار وتحفظها آيات الكتاب ولما بلغت نورا السنة النهائية بالتعليم الأساسى أقعدوها فى البيت خوفاً من تدرجها فى التعليم بعد ذلك .. لقد بدأت تخطو الخطوات الأولى مع الأنوثة وعلى الجانب الآخر يبدأ الخطر من رجال الكشافة والجوالة والطلائع والتدريب والمعسكرات والدوائر القذرة التى صنعها الحكمدار فى المدارس والجامعات وغيرها .. كان الجمع وهو يسير الى المسجد تسوقه مشاعر دافئة قوية .. جمع عزيز تلهبه نشوة الايمان .. كان الحب والنور ينبثق من وجوههن .. وعيونهن تبرق شعاعاً صافيا لامعا .. وأقدامهن تلامس الأرض فى دعة ورقة .. وتمنى هذا الجمع فى كل وقت أن يعيش فى مدينة خالية من الحكمدار والسفلة .. وأن تعيش كل منهن باسم آخر .. وأن يغير رجل البيت عمله ليكون فى نفس المدينة .. وفكر حكمدار الحى أن يأخذ الثلاثة ليشهدوا كل ما سيجرى

لعبد اللطيف .. ولما أبلغ الأمر الى الرئيس المناصل بحال هذه الأسرة .. كانت تعليماته أن تأخذ ابنة الحزب أولا .. وكانت هند تضحك من كل قلبها وهي تصغي الى حديث طفلتها نورا قبل النوم .. وكلما اعتصر قلبها بالايمان ازدادت حبا ووداً نحو نورا .. وعرفت نورا معنى أمها الحبيبة ومقدار عاطفتها نحوها مما عوضها حرمانها في الأيام الفائتة .. كانت هند تشعر بأنها مديدة القامة وأن خطاها التي كانت مترديه أصبحت ثابتة .. ان شيئاً من الصبا قد آل اليها .. انها الآن تمسك بتلابيب نفسها وكيانها .. يقظة بالعالم واعية به .. تدخل عالم النور واحتضنته هي وأسرتها .. وفي ليلة من الليالي سألت أمها قائلة :

ـ هل سنظل نسعد بحياتنا هذه يا أمي ؟

الأم ـ نعم .. وانعقد لسان الأم لحظة .. لماذا لا نظل ؟

هند ـ علينا أن نسك بأمرنا .. أتمنى أن يتركونا نهنأ بحرية العبادة ..

الأم وهي تمط شفتيها :

ـ وهل نضيرهم في شيء ..

هند ـ أنا أعرفهم يا أمي .. ان هذه موجة من موجات التطرف في نظرهم .. ويكون أمراً مرعباً لو انتقلت عادة ذهابنا الى الجامع الى بيت آخر ..

الأم ــ أعرف .. ان خليطاً من الحزن والخوف يحذرنى من الغد .. نحن فى مدينة جعلوها مزبلة للتاريخ الانسانى .. حتى العبادة قيدوها بين القضبان .. ان أنفاسنا جميعاً محسوبة .. ليس لنا حيلة فى الظلام المحيق حولنا غير أن ندعو الله أن يعميهم عنا أو ينقلنا بقدرته الى مدينة أخرى فى العالم نعيش فيها ..

هند ــ هكذا يحط الظلام فوق رؤوس الناس .. ولولا كلمة يارب ما هبط النوم رأس انسان فى مدينة سوداء ..

الأم ــ كل شىء حولنا هو الهلاك .. لكننا لا نذهب الى الهلاك .. سوف أذهب الى كل صلاة حتى ولو صوبوا على رأسى مدرعة .. ما أجمل أن أموت وأنا حرة .. ومرت الأيام والأسرة التى حباها الله بالايمان مستمرة فى عبادتها .. ولما يأت الأب من الجنوب يذهب مع أهل بيته الى المسجد.. وفى يوم ذهبت نورا مع جدتها الى سوق المدينة .. وطرق أحد الجنود يرتدى ملابس مدنية باب هند وأبلغها باستدعاء الحكمدار لها .. استأذنته ساعة لترتدى ملابسها .. لم تخف وآزرها ايمانها وكتبت رسالة لأمها تخبرها بالأمر .. وقرأت بعض آيات الكتاب .. والجندى ينتظر فى صالة البيت فى قلق .. وزعق مرة قائلا : يا شيخة هند كفاية .. كفاية يا .. يا .. وقالت فى خشوع .. أسلمت وجهى اليك . أنت وكيلى وحسبى .. لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ..

صـدق الله العظيم .. وخرجت من غرفتها ومشت نحو الباب وألقت عليه نظرة غضب وزعقت فيه قائلة .. أخرج أمامى .. ابتعد عنى قليلا .. انى سـأتبعك .. وتعجب الجندى لشجاعتها وأمرها له .. وهز رأسـه وهو يحرك وجهه يمنة ويسرة كأنه يتوعدها ومط شـفتيه وقال :

ـ هذا يومك يا فاجرة ..

ولم تخف وسارت خلفـه فى تحـد وكأن شـيئا قد نزل طبيعيا وقويا فى قلبها ورأسها الى أبعـد حدود يمكن تخيلها.. هادئة رزينة .. وكان الحجاب كالتاج فوق رأسها .. وبصقت على الأرض كأنها تبصق عليهم جميعاً وقالت بصوت مسموع :

ـ أنا لا أخاف الا الله .. سـأواجههم بالحقيقة وسأبصق فى وجههم جميعاً .. سأخلع حذائى وأضرب به على رؤوسـهم الحافيـة ..

وسارت وتلفتت حولها مرات لترى الناس وقد هاموا .. يظنون أنهم يسعون فى الحياة .. لكنهم يمشون لملىء بطونهم وكساء أجسادهم واقامة لهم .. انهم لا يسعون لعزتهم وحريتهم وكرامتهم .. يغوصون فى أعماق هـذه الدنيا لنيـل مطالبها المـادية .. هكذا تصورت الناس .. وشـعرت بهم .. كأن مسـاً من الجنون ألم بها .. امرأة تعرف أنها تذهب الى أول الجحيم وتفكر فى النـاس والحرية .. وفجـأة انقلب المخبر الحقير الى الخلف .. وزعق قائلا :

ـ تعال .. أنظرى هناك .. العربة السوداء هذه ..

وتوقفت مشدوهة واتجهت بناظريها الى العربة السوداء .. مخيفة لكأنها لامعة طويلة كالقاطرة .. وكان أربعة من المخبرين فى ملابسهم المدنية يتقدمون نحوها فى ثبات وعملوا حولها شبه دائرة .. واقترب نحوها أحدهم وقال فى غلظة :

ـ أنت هند ..

ـ نعم ..

وفى لحظة هوت يده على وجهها فكادت تقع على الأرض ولما انعدلت كان همها أن تعدل الحجاب على رأسها ووجهها .. ولما وقفت قالت :

ـ آه يا به .. آه ..

وفارق الدمع مقلتيها .. ولطمها مرة أخرى فتطاير الشرر من عينيها ووقفت هذه المرة وانكفأ عليها ونزع الحجاب من رأسها بصعوبة وهى تقاومه .. وتجمع الناس وألقى بالغطاء الذى يسترها عند أقدامهم فحاول بعضهم جمعه وأمسكه أحدهم فى يده وأطلق بعض المارة آهات .. يالمسكينة .. من هذا .. ماذا يفعل .. ورد أحدهم وهو يمرق بينهم لا .. لا تتكلموا الصمت .. انهم .. المخابرات المخابرات .. وقال أحدهم ومن أدراك فردت أصوات واهنة من هنا وهناك .. طالما يلقون بالحجاب وهذه امرأة محتشمة .. انه كمن يسوقها .. يضرب فى غلظة يلقى بها هنا وهناك .. اذاً هذا رجل

مخابرات .. وحاولت الوقوف لكنها وقعت .. أمسكت الأرض وحفرت بأظافرها فى طين الشـــارع المشبع بمياه المجارى القذرة وكادت تلقى فى وجه المخبر بقطعة منه لكنها سرعان ما أدركت تتائج هذه الفكرة .. وتوسلت الى الناس حولها .. تفرست فى وجوههم .. هل من منقذ .. فوجدتهم أشد خوفاً وهلعـا منها .. ان معظمهم من كان وهند وباكستان وبنجلاد .. ضعفاء هذا العالم الصغير المنكوب .. كيف يأتى العـون من عدم .. وقامت وصرخت :

ـ ماذا فعلت .. ماذا فعلت ..

وقذف بالحجاب فى وجهها وقال :

ـ هذا يكفى لذبحك .. تركناك عاماً تذهبين الى الجامع .. ماذا تفعلين هناك .. تذهبين ومعك مظاهرة ..

هند ـ هذا الجامع هو بيت الله ..

المخبر ـ بيت الرجعيـة .. لمن تقيمون الصـلاة .. من يطعمكم غير .. من جعـل لكم وظائف وتجارة وبيـوت غير الحكمدار .. هل تستطيعين الحصول على شىء بعد صلاتك .. يا فاجـرة .. تعـال .. وشـــدها .. يجرهـا الى العربة .. ودفعها الى داخلها .. وانكفأت على المقعـد الخلفى تبكى وتشنج وتضرب بيدها الباب الصغير .. وضربها الذى قعـد بجانبها على رأسها ولعنها .. واندفعت العربة تجوب الشوارع ..

كانوا ثلاثة وسائقها .. وتسابقوا جميعاً فى السخرية منها .. لعنوها وبصقوا فى وجهها .. مزقوا الحجاب فى حجرها ونكشوا شعرها .. واستدار الركب الى اليسار ليغيب تماماً عن عيون المدينة .. وراحت هند فى غيبوبة .. ولما أفاقت جالت بناظريها حواليها .. لم تر بنايات أو أى أثر للعمار .. لكنها وجدت خياماً وأبنية حالكة متناثرة تحيط بها أسوار من السلك والشوك وشجر السنط .. والكلاب تنتشر .. تجرى وتلعب وتعوى وبعض الجند يحملون بنادقهم فى بذتهم العسكرية الصفراء .. وربطوا عينيها بعصابة من قماش ثقيل وقالوا .. لها انزلى الى تحت .. ورموا بها فى قلب العربة حتى كاد وجهها يلامس حذاءهم .. ثم دخلت المركبة فى طريق تحيط به غابة كثيفة من الأشجار .. وحاولت النهوض فوضع أحدهم حذاءه على رقبتها ومضت العربة قليلا ثم توقفت فى مواجهة مبان أكثر كلاحة .. وتقدم أحد الجنود وفتح الباب الخلفى ونزل أحدهم وبعده ألقوا بهند على الأرض ومسكها أحدهم من ذراعها وأوقفها قائلا :

ـ يا بنت اللبؤة الى الأمام .. امشى الى الأمام ..

وثارت تتحسس الأرض بقدميها يتقدمها صوت ويخلفها صوت آخر .. كانت كلمات كليهما قذرة ملعونة .. ولولا تعرضها للأذى لشتمت هى الأخرى بكلمات أشد قذارة .. واصطدمت بأحد الحراس عند أول باب وأمسكت به قائلة :

ـ آسفة .. خذ بيدى ربنا يخليك ..

وضربها الجندى بدبشك البندقية .. قائلا .. ايش ربنا بتاعك يا قحبة .. ونزلت درجاً صغيرا وهى تكاد تتكفىء على وجهها وزعقت قائلة :

ـ واحد يمسكنى يدلنى .. حرام عليكم .. أنا عملت ايه ..

وانهالت عليها قبضة من الخلف قال صاحبها :

ـ خدى شمالك يا بنت المنا .. واجرى .. والا فرغت فى رأسك ثلاثة عشرة طلقة .. هات ربك ينفعك ..

وزعقت فى وجهه قائلة :

ـ ربى يصعقك .. ربى هـو رب العـالمين .. وهو ربى العظيم .

وزمجر وهاج وتوعد واقترب منها وأمسك رأسها بكلتـا يديه ودفعها نحو الأرض .. وهوت على أم رأسـها وصرخت آه .. آه وسال الدم من رأسها وأنفها وتكورت فداس فوقها كمن يدهس حشرة .. وتعالت قهقهة الجند فى مجون لمـا تعرت سـاقيها .. وقال أحدهم .. أتركها لى يا سـيدى .. وقال المخبر بصيغة آمره لأحـدهم .. خـذ اللبـؤة الى مقرها .. وأخذها الجندى يدفعها لتقف ثم يقذف بها أمامه بقسوة وضراوة فتخبطت كرة أخرى فى الأبواب والحيطان والجنود .. الجنود الذين اصطفوا لينالوا منها ويعبثوا فيها بأصـابعهم .. حيث جرى عمل هذه المراسـم لأية امرأة أو رجـل نزيل .. ودفعها

الجندى فى حجرة صغيرة مع أحد النزلاء فوقعت عليه وتحسسته بيدها قائلة :

ـ آسفة يا أخى .. معذرة ..

وشد الجندى العصابة من عينيها . وقال :

ـ هل ترين ؟..

هند ـ نعم مازلت أرى ..

الجندى ـ من أنا ..

هند ـ رجل ..

الجندى ـ أنا ربك ..

تلعثمت وقالت :

الله .. الله ..

الجندى ـ ألا يعجبك أن أكون ربك .. كل من فى القصر من النزلاء نطق بهذه الشهادة .. وضرب الجندى النزيل بحذائه على رأسه وأوقفه .. فوقف الرجل بصعوبة لأن آلاماً مبرحة لم تساعده على أن ينصب ظهره وقال :

ـ آه .. آه .. انى أموت ياسيدى ..

الجندى ينهره قائلا :

ـ قل لها من أنا ..

النزيل يسبل بعينيه نحو الأرض :

ـ قائد المبنى .. القائد الأعلى .. و ..

وأمسكه الجندى من رقبته ولواها فى يده وأجبره أن يقول :

ـ انه ربى يا سيدتى ..

وضربه الجندى ثانية ولوى ذراعه :

ـ يا بن المهتو .. قل لها أنا الرب ..

النزيل مجبراً .. انه الاله يا سيدتى ..

الجندى ـ قل لها يا قحبة ..

الرجل ـ يا قحبة ..

الجندى ـ افعل بها الآن والا كانت الليلة آخر يوم من عمرك ..

الرجل ـ ان صحتى لم تعد .. لم أستطع عمل هذا الآن .. لقد انتهيت .. أرجوك يا سيدى .. وغنج الجندى وتأوه كالفاجرة .. وامسكه من خناقه وقال :

ـ ستفعل الآن وأمامى .. اجعلها تخلع ملابسها أو اخلعها أنت ..

وتقدم الرجل نحوها وقال والدموع تنهمر من عينيه :

ـ اخلعى ملابسك ..

ونزلت الصاعقة بها .. وتمالكها بعض من التدبر وقالت :

ـ حاضر .. حاضر .. سوف أخلع .. أليس لى أن أستريح قليلا ..

الرجل ـ هو الذى يريد يا سيدتى ..

الجندى ـ يا ابن الحرام قل لها يا فاجرة ..

الرجل ـ يا فاجرة ..

الجندى ـ اخلعى ملابسك ..

هند ــ أنا أمامك افعل ما تريد ..

الجندى ــ تقدم وافعل كما أمرتك ..

تقدم ومد يده يفك أزرارها .. وفى لحظة وقع بالأرض .. وحمدت هند ربها متمتمة بالتسبيح .. واتكفأ عليه يضربه بقسوة حتى تهيأ لهند أنه انتهى .. ولاذت بالجدار تبكى وأقترب الجندى منها وهوى بيده على وجهها فسقطت على الأرض مطلقة صرختين .. وزعقت سيدة فى الزنزانة المجاورة .. زعقت فى طفل تحمله على حجرها هو طفلها وزعقت أيضا لما سمعته من جيرانها .. ثم عوت كما تعوى الكلاب .. حرام عليكم .. حرام .. ألم تكونوا أطفالا فى يوم .. خذوا منى طفلى واتركوها حرام .. لقد تمزقت أحشائى من الألم عليه .. قتلته الحمى .. ولدى فى حاجة الى علاج حقيقى لن تعمل له حبات السلفا شيئا .. وكان صوت السيدة هو الرنين الوحيد الذى أشعر هند بأنها مازالت حية .. واندهشت من حديثها ومناجاتها .. وهانت عليها نفسها وأن هناك غيرها يتألم أكثر منها .. وحمدت الله على عدم المساس بها .. وجن جنونها لما تصورت أن يكون هنا أطفال .. ان هنا أطفالا بالفعل .. أطفال مع أمهاتهم .. وارتفع صوت المرأة ثانية ابنى يموت بين يدى وصدرى خال من اللبن وطعامكم بارد وقذر ينفر منه الكلاب .. أيها الناس .. هل أنتم ناس حقا .. هل يتحمل طفل هذا العذاب .. خذوا طفلى بعيدا عنى .. ألقوه فى أى طريق ان حيوانا ضالا سينقذه ويرأف بحاله .. ان هواءا عليلا يشفيه ..

ما الحكمة أن يموت طفلى بين يدى .. زوجى جاسوس فى بلد السرجان يعمل ضدكم كما تقولون وما ذنبى أنا وولدى .. انه لن يعود من أجلنا .. ابقونى أنا وأطلقوا سراح طفلى .. ان لم تفعلوا فسوف أقتله بيدى رحمة بى ورحمة به .. ان زوجى لن يعود أبدا .. انه يخافكم ويكرهكم ويزدريكم ويبصق على رأفتكم .. ان طفلى الآن يموت يلفظ حياته الى الأبد ليس لى غيره .. لم يعد لى شىء فى الحياة .. .. وأمسكته بيد مرتعشة لترى وجها مرعبا لطفل مزقته الحمى .. فتلك رأسه المتداعية هى شكل جمجمة أقرب من شكل رأس .. هى أقرب لرأس قط من رأس طفل .. وهذه العينين الغائرتين.. والفم الذى سواه السقم .. ان كل ما فيه ينئن من المرض ومن الجوع ومن الظمأ .. ان صلات الحياة بالطفل قد انقطعت .. كالماء الذى حرمت منه الأرض فتشققت وهوت.. وهوت الأم على رقبة طفلها بكلتا يديها تخلص تلك الحياة منه وفى اعتقادها أنها ترحمه وعوى الطفل مرة .. ثم خرج منه مواء وخرج لسانه من فيه .. وبرزت عيناه فى لحظة كمن يستغيث من أمه أو يندهش لأن أمه تفعل به هذا .. لكنه فى لحظة أخرى هز رأسه كأنه يفهم أنه يقدر موقف أمه وأنها تفعل ذلك لترحمه .. انه يستغيث بها من نفسها .. ويؤنبها .. لكنه فى كل أمور الشعور التى يشعر بها أى طفل فى مثل هذه الأحوال يشكر أمه .. انه يرضى عن فعل أمه لأنها تجعله يفارق أحط حياة صنعها واحد من البشر .. وشق

الطفل قلب أمه بسكين حاد .. وفزعت الأم ووقفت والطفل الميت بين يديها وانفجر بقية من عقل فى رأسها واقتربت من قضبان الباب لتكون ظاهرة لكل عيان وجأرت :

يا خونة يا سفلة يا حيوانات .. يا قاتلى الأطفال .. يا حكمدار الندامة والانحطاط يا جند .. يا حرس .. يا لعنة الزمن .. يا حسرة الحياة .. يا ظلمة أبد .. يا بلدة زنت .. يا أمة بصقت على اللبن .. يا قاتلوا الحياة فى قلوب آمنت .. يا غجر .. يا حثالة مجتمع .. يا أحقر من فى البلاد وأحط بشر ..

وجرى السجناء يضعون آذانهم ورؤوسهم وعيونهم على قضبان الباب لكل زنزانة فى هذا المعتقل الرهيب .. أيها الناس لقد قتلت طفلى لأنهم قتلونى .. قتلوا الرحمة فى داخلى .. أيها الناس لقد طلب منى طفلى أن أفعل لأرحمه من العذاب فما رأيكم .. هل ستقتلونى تعالوا وافعلوا والله انى أرضى بحكمكم .. يا رجال الحكمدار العظيم والمهيب .. رجال المهيب ان كنتم حقا رجالا اقتلونى .. أخرسوا الصوت فى داخلى .. أريد موتا حقيرا دانيا وهذا هو موتكم .. أنتم الموت المهان تحت أقدام بغت وتكبرت وكفرت وتجردت .. تعالوا بهذا الموت .. انى أريد الموت فأنا قاتلة .. وأنتم أشد قتلا لأنكم دفعتونى الى ذلك .. وعباس أين عباس .. انه القاتل الكبير بل هو الشيطان الرجيم .. يا أيها العالم تعالى وخذ طفلى .. خذوا طفلى وأقيموا له مقبرة فى الهواء انى أخاف على طفلى

من مقابرهم .. وتعالت صيحات السجناء .. أطفال ورجال ونساء من كل الأعمار .. أصوات تصرخ وأخرى تولول وغيرها تبكى ثم توحدت كلها وتعالت .. الله أكبر .. الله أكبر .. ويسقط عباس .. يسقط عباس قاتل الأطفال .. وحفل السجن بمظاهرة .. مظاهرة حطمت الجدران والأغلال والأبواب والتضبان .. وجن جنون المأمور .. ماذا يفعل .. اتصل بالقيادة .. وعلى عجل وبغير تردد جاءته الأوامر باعدام أعلا الصيحات فى ساحة السجن حتى يكونوا عبرة للجميع .. وانتزعوا من كل زنزانة رجلا أو امرأة أو شاباً .. وكانت فى مقدمة النساء المرأة التى قتلت طفلها .. وكان بينهم غلام ماتت أمه من قسوة التعذيب منذ أيام .. وهو يهتف كل يوم بسقوط الحكمدار .. تسعة عشرة رأس .. كل رأس فيها من الألم والعذاب ما يمتلأ به هذا العالم من مساحات الهواء .. لم يكن باستطاعة أى منهم أن يفعل أى شيء .. وفى لحظة رفعت الأيدى سوياً الى أعلا ولاذت العيون بالوداع .. ومنهم من صرخ وآخرون أغمى عليهم وغيرهم تشنجوا .. ورجفت القلوب ثم خفقت وتعالت الأصوات متتابعة .. الله أكبر .. الله أكبر .. ثم انتظمت سوياً مثل ذكر .. الله أكبر .. والألم يلف الجميع .. كل من فى هذا المبنى فى حزن وألم وبكاء .. كان الحزن والقهر فى هذا المكان خليقاً بأن يجعل الحيطان تبكى والأشجار المحيطة بالمبنى تولول .. وكان هناك الحمير ترعى الكلأ والكلاب تأكل النفايات الملقاة خلف

الجدران .. لقد ضلت هذه الحيوانات طعامها ونهقت وعوت وسالت الدموع من عيونها ونكست رؤوسها بالأرض .. وفى لحظات انطلقت الرصاصات كالرعد فى الرؤوس والرقاب والصدور .. ووقع جدران الايمان يحتضن الأرض .. لا .. ان جدار الايمان لا يقع .. سكتت أصوات .. انطفأت أجساد بشر تجاهد فى سبيل الله .. وصعدت أرواحهم الى عنان السماء مخترقة القضبان الصدأة والجدران العفنة .. وتعالت أصوات الفزع والخوف فى كل زنزانة وسرعان ما هوت من القمع .. كل فزع فى داخله وتألم .. كان الحداد عسيقاً يخيم على المكان كسحابة من دخان أغبر لا ينجلى .. ان الجثث نفسها مازالت تبكى من شدة الكفر .. وقد حملت الرياح هذه المناحة الى كثير من بلدان العالم .. لكنه للأسف ان التعاون السياسى مع هذا النظام تحكمه المصالح والأهداف .. لا أحد يدرى ماذا يحدث فى الغد .. ان انتقام الله لآت ..

وجأر الجنود فى المبنى .. لا صوت .. لا نباح لا دموع والا أخذناكم الى هذا الموت .. وساد الرعب وسقطت القلوب عن النبض .. ولم تكن النبضات المتبقية الا خنقات كوخز الابر .. وتهدمت الرؤوس .. تهاوت من الصدع .. تجمدت العروق وجفت من جريان الدم .. انهارت الأدمغة وبالأحرى حفيت الرؤوس .. وأسدل الليل عباءته السوداء .. ولم يكن هناك أية حياة للنزلاء تذكر ولم يذق واحد منهم بلعة خبز عفن أو نقطة ماء .. ومضت الحياة بعد هذا اليوم كالبصقة ..

وقالت هند لزميلها فى القبوة .. والله لو عادت الحياة بعد ذلك لهؤلاء الذين أعدموا .. فان طريق الحياة معهم يضل .. ان الحياة بعد ذلك لكل الذين يعيشون فى هذه البلاد .. هى الهلاك .. لقد ماتت الحياة فينا حتى ولو كنا أحرارا فى الغد .. ان هذه البلاد سجن كبير .. والسجن داخل هذه القضبان لا يختلف عن خارجها .. من ينقذ بلادى .. وغاص سجن الأندلس فى حزن أبدى .. وبعد أيام تم اخلاء السجن من من نزلائه .. حيث قبضوا عليهم فى سجن آخر .. وأيام أخرى قليلة تم تجديد النزلاء بسنات أخرين تم القبض عليهم ..

ومضت الأيام ثقيلة وسط ذهول وأحلام خانقة .. وجاء يوم عبد اللطيف الكانى .. حيث وضعوه فى عربة جيب أوصلته الى شبح بيت قديم يمتلأ ببقايا مهمات قذرة .. وأدوات الموت ترتفع فيه كظل شيطان رجيم .. نزل من المركبة معصوب العينين وخلفه جندى يسوقه الى عامود حديدى دقوه فى الأرض وتم ربطه فيه من القدمين وتحت ابطيه .. ولم تمض دقائق حتى أشرقت هند .. انها المرأة التى تحجبت وآمنت خرجت عن طاعة السادة فلابد من تأديبها .. ولما فكوا العصابة السوداء من على عينيها انهارت تمسك بالأرض من هول المفاجأة .. عبد اللطيف مربوط على العامود .. وحاولت أن تتماسك لكنها لم تستطع .. حاولت أن تصمت صمت الجدران لكن بكاؤها كان شديداً .. ولم ينقطع صوت الله فى داخلها وأخذها الجندى وأقعدها على حجر يبعد عن عامود الصلب ..

وجالت يناظريها ما تستطيع .. صندوق خشبى قديم مدهون بدم البشر له حلقات حديدية على جنبيه .. قطع خشبية فى صورة سيقان البشر دقت فيها مسامير غليظة .. ملابس قديمة مبعثرة وممزقة .. أجولة من الخيش آكواماً هنا وهناك منقطة بالدماء .. وأثر لجزع شجرة جاف مغروس بالأرض .. والهواء بارداً كالصقيع والشمس مع ذلك شديدة متوهجة .. والجندى الذى هناك يعلق بندقيته فى كتفه وعيناه معلقتان على الكانى المصلوب .. كان كل شىء مدهون بالأحمر حتى رمال الصحراء تكاد تمتلىء بهذا اللون .. وباب أحمر قاتم يغوص فى الأرض ونافذة مزججة كذلك .. ولما بدأت عيناها تألفان تلك الظلمة القاتمة والمتوهجة فى لونها الأحمر .. ظهرت عربتان جيب على مرمى البصر .. واقتربت احداها من العمود ونزل منها جندى وبعده ضابط برتبة نقيب .. ونصب الجندى خيمة صغيرة على وجه السرعة وأنزل من العربة مقعداً ومنضدة صغيرة داخل الخيمة وجلس أمامهما لحظة .. ثم قام ليقعد الضابط على المقعد .. ووضع على الطاولة بعض الأوراق وكتب قليلا .. وكانت الخيمة تبعد عن مكان الصلب عشرون متراً ..

وكانت هند تحاول أن تمعن النظر فيما حولها وتنهمك فى اطلاق ماذا سيحدث بعد .. وكانت رقبة المصلوب ترتخى وتتدلى على صدره قليلا وقدماه لا تقدران على حمله رغم أنها مشدودة بالحبال .. وجاء جندى من بعيد يحمل علبة وضعها أمام الضابط ورجع خطوات الى الخلف وفتحها النقيب وعد ما فيها وناولها

له فأخذها الجندى ومشى بها حتى وصل الى الرامى الذى يحمل البندقية .. وفتح خزنتها وحشاها بالقوابل وسرعان ما أعادها ووضعها فى كتفه ثانية ووقف شبه انتباه مشدود القامة .. والمصلوب يرتجف لما سمع صوت البندقية .. وبقايا من نبض قلبه تكاد تسرى فى جسده الذى جف كعود حطب .. وتناهى الى سمعه أصوات غليظة كالتى تسمع فى غابة حيوانات .. ومن بعيد يأتيه صوت تقطيع أشجار وأجساد تقع فى مياه .. وكأن لهيب النار تأكل فى قطع الخشب .. وكانت هناك كلاب كثيرة قد انتشرت حول المكان تعوى بأعلى صوت .. وفى هذه اللحظة كان عبد اللطيف يريد أن يرى الدنيا حوله وكان يعتقد أن فوق رأسه سقفا مصنوعا من الزفت والقطران وروث الحيوانا .. وكان يحاول تحريك وجهه يمنة ويسرة .. ومن حلاوة الروح كان يريد ان يجأر .. ولما أيقن أنه ميت لا محالة .. جأر قائلا :

ـ يا كان .. يا كان .. يامه .. يامه

وزعق فيه النقيب :

ـ اسكت يابن القحبة ..

وزعق أكثر وأكثر ودعته ثانية حلاوة روحه ونادى أعظم مناداة :

ـ يا رب .. يا رب .. حسبى ووكيلى .. حسبى ووكيلى .. ثم زعق الجندى فيه فكاد يدخل فى العامود وتمنت هند أن تسقط مغشياً عليها قبل أن تسمع صوت الرصاص ..

وأصابها نوع من التخدير وانسحبت بجسدها الى الخلف ووضعت كفيها على رأسها ومالت بوجهها نحو الأرض وهى تفشى بمقليتها الرمال التى أصبحت بلون الغبار وصرخت وكتمت الصيحة فسرت فى داخلها كالمدية وبصقت دما أزرقا يتموج بالحمرة وفى غمضة عين كان جندى يضربها من الخلف بحذائه قائلا :

ـ هل يصعب عليك الكانى ؟..

وانكفأت على حذائه متوسلة :

ـ هذا له أطفال وزوجة وأهل ..

وشدها الجندى من قفاها ودفعها الى الأمام فتكورت ووقعت .. ونادى النقيب عليه بأن يتركها لأنه لا يوجد امرأة غيرها .. حتى ترى وتعود الى رشدها .. وسكت لحظة وأردف .. انها وجبة مسعود بعد العملية .. وذهلت من قول الضابط وارتمت تلف وجهها بالأرض .. وساد الصمت والتمت عينا الجندى وفنجرت وطار منها الشرر وفى لحظة تورمت وانتفخت ودورت .. ورجع الجندى الى الخلف قليلا ومد ساقا الى الأمام وثبت السلاح فى كتفه واكفهر وجهه وانصهر كأنه وهج من حديد .. ودوى الصوت كاللهب وانفجار قد سكن ولسان خرج وزفرة تأوهت وصوت زعق وجسد تدلى وخار من قوة النار وعظام تحطمت .. وأخذو الرأس .. وضعوها فى صندوق .. وطوحوا بالجثة فى بطن الجبل .. ولا شىء .. ان عبد اللطيف مثل مئات من كان قد ظنوها سعادة

أبد ولا يعرفون أنهم فى النهاية فى بلاد حكموها عجز .. انه نقطة فى بحر عميق .. وجبل كبير واعر تأكل فيه الكلاب والقطط الضالة جثثاً تعفنت ..

وحملوا هند الى عربة الجيب وهى أقرب الى الميتة منها الى من بقى فيها شىء من حياة .. انها وجبة مسعود الذى يفترس أى أنثى بعد أى عملية .. ليكبر ويعيش كالوحوش الضالة .. انهم يقولون أنه من الأشاوس والمغاوير وهو متخصص فى عمليات أبناء كان لأنه شديد الكراهية لهم .. وقاومت هند مقاومة الموتى ثم ماتت بين يديه ورجليه .. وقالت وهى تموت أمامهم .. اللهم امدد لى خيطا رفيعا من النجاة .. من عفوك ينجينى من الموت بعد التوبة .. ولما تأكد له تماما أنها أصبحت فى عداد الموتى .. نادى على السائق أن يدخل فى أقرب فتحة فى الجبل لالقائها حتى تأكلها الحيوانات الضالة هكذا قال له .. ودخل السائق فى فتحة تؤدى الى أشجار شيطانية خرجت فى بطن الجبل وحملها مسعود على كتفه وألقى بها على الرمال وسط مجموعة من الأشجار .. وانقلبت العربة الى الطريق المؤدى الى المدينة يبحثون فى أحد شوارعها عن امرأة له حتى يظل قويا شديدا لعملية أخرى .. ولما اقتربت عربة الجيب من المدينة .. نكشت هند فى الرمال بأصابعها ثم نامت قليلا وهى لا تدرى أين هى .. ان غيبوبة تامة تأخذها .. وأنها فى لحظات قبل الموت الحقيقى .. هى لا تعلم أنها فى جبل يمتلىء بقطاع الطرق والوحوش والذئاب التى لا تتورع عن نهش لحوم

البشر .. ودخل المغرب وكان قرص الشمس يسقط هناك عند الأرض المترامية البعيدة .. والسماء تكتظ بالغيوم .. غيوم ثقيلة تنذر بالمطر .. وبدا فى الأفق لمسات الهواء البارد ونسمات تحف بأوراق الشجر .. وبعض الطيور تلامس الأرض وأعال الشجر باعثة صوتا سحريا .. بدأ وكأن دائرة من دفء الطبيعة نزل يحيط بالمرأة التى تابت الى الله فأنقذها وجعل لها مخرجاً .. والمرأة مازالت متهالكة خائرة القوى .. ثم شعرت بخليط بين النوم والكابوس أو حمى .. وتحسن الطقس قليلا وسكن الهواء وانقشعت بعض الغيوم من السماء .. ولو كانت يقظة لأدركت أنها هالكة لا محالة .. ووقعت كومة قش قرب رأسها من أعال الشجر فلامست شعرها .. وانحنى عصفور طائر فوقها وقر أعواد القش ولما أدرك الطائر أن جسداً لبنى آدم يرتمى على الرمال زكزك بصوت عال وفر .. وران الصمت كرة أخرى فيها مازالت المرأة غائصة فى نومها أو غيبوبتها .. وكانت أصوات المدينة البعيدة تترامى الى هذا المكان كل حين وكأنها صوت مركب يخور أمواج البحر .. وانقلبت على ظهرها بعد ساعة من ظلمة الليل وبدت السماء فى عينيها المتورمة وكأنها عباءة سوداء فوق وجهها .. لكن حفيف أوراق الغابة وصوت بعض الطيور فى أعشاشها أيقظ شيئاً فى رأسها .. وتساءلت دون أن تنبش بأدنى صوت .. أين أنا .. وتحسست الرمال بأصابعها ونهضت على ذراعها لكنها سرعان ما هوت وانعدلت على جنبها وبدأت تبصر قليلا محاولة أن ترى

كل ما حولها وأخذت تفرك عينيها بأصابعها .. وبدت الخيوط الغائبة على ذاكرتها كأنها شيء لا يصدق ان ما بقى فى تلك الذاكرة لا يمكن أن يمحوه زمن بكامله .. ان الكانى المصلوب قد دمرت رأسه رصاصات من جندى اسمه مسعود حقير وأن هذا الجندى كان يريد أن يغتصبها فقاومته وطلبت النجاة من ربها فأماتها .. وتهيأ له أنها ما بقيت فى كنف الحياة فرمى بها نعم .. ان ما فى العربة يبدو كما هو ثابت ألقوا بها هنا .. وتحسست ملابسها الداخلية فوجدتها ناشفة طاهرة وفرحت .. فرحت كما لم تفرح من قبل .. وهون عليها ذلك قسوة الظلام والخوف الذى يستشعره أى انسان فى هذا المكان النائى .. ولا أحد يصدق أن هند سعدت أكثر عندما أيقنت أنها بعيدة عن المدينة .. وأن أفق المدينة يعوى من بعيد .. ويرغم أن الليل حالك فى سواده فان هناك اصفراراً غريباً فى عب السماء .. ان الهواء الذى عادت نسماته باردة يفرز صوتاً كصفير الأفاعى يكتنف الآفاق .. وغالبها النعاس وحفرت فى قلب الرمال مجرى طولى ووضعت نفسها فى قلبه وقعدت لتجلب الرمال من على أجناب هذا المجرى على ساقيها ثم بطنها حتى غمرت الرمال جسدها كله حتى صدرها .. ولم يعد تنفذ الى جسدها لفحة من برد وأدفأت الرمال جسدها وحمدت الله وكان النوم عميقاً .. كان أقوى من أى شيء واستسلت له وهمست الى السماء وكأنها تحدثها أحمد الله .. أنى بعيدة عن المدينة

وعن الناس وما بعد ذلك أيها الجبل الصديق والأشجار الطيبة فان أمره الى الله .. ان أمرى الى الله ..

وخرجت مركبة من المدينة يقصد صاحبها عاصمة الشمال .. فجأة توقفت العربة عند الغابة ونزل الرجل وفتح باب العفشه وأصلح العطب ولما عاد أمام عجلة القيادة نزل ثانية ودخل قليلا فى الممر المؤدى الى الأشجار وفى حضنى احداها تبول وانقلب مسرعاً الى الطريق .. ولما اقترب من عربته تعلقت بأنفه رائحة ملابس فتوقف ورجع قليلا يسترق السمع فترامت الى أذنه أنفاس بشرية .. ان انساناً هنا لا ريب .. هكذا قال لنفسه .. ان هند انسانة هادئة المزاج لطيفة الطباع هذا منشأ هذه المرأة .. وفى أول نومها تهيأ لها من منامها أن رجلا سيأتى وينقذها .. وسعى الرجل ناحية الرائحة والشخير وكانت رجليه تغوص فى الرمال مما جعله يمشى على مهل .. وبعد خطوات كان يقف فوق هند .. وغاصت قدماه فى لحم بشرى فتأوه وقفز الى الناحية الأخرى وانحنى فوجد رأساً لامرأة يلفه طرحة سوداء .. وامتدت يده تمسك بذراعها وصرخت هند ولكنها لم تستطع أن تقوم من رقدتها .. وكان فى ميسورها أن تكررها لكنها لم تفعل حيث لحقها الرجل .. قائلا .. أنا أخوك .. لا تخافى .. جئت أساعدك .. ولما تهيأ وجهه لها توسمت فيه السلامة .. وارتاحت لأصابعه الحنون فوق ذراعها ولما سكتت مسبلة عينيها فى وجهه قال فى هدوء :

ـ من أنت يا سيدتى ..

وأشارت بأصبعها نحو السماء ..

وقال ثانية فى رفق :

ـ من آتى بك الى هنا ..

فهزت رأسها وقالت :

ـ وماذا تريد منى يا رجل ..

الرجل ـ أريد مساعدتك .. وأمسكها من ذراعيها وشدها الى أعلى وقال :

ـ أخرجى شدى رجليك اسحبيها ..

وفعلت وانكفأت تنفض الرمال عنها .. وساعدها على الوقوف وشعرت بآلام فى ظهرها ونشأت المرأة تئن وبدا عليه الحزن لتألمها .. وبلعت ريقها عدة مرات وقالت :

ـ هل لديك ماءاً ..

وهرول الرجل الى المركبة وأحضر جركن مملوء بالماء وعاد به مسرعاً وفتحه ووضعه على فمها وأمسكت اناء الماء بكفى يدها وكأنها وجدت قطة من خبز طرى .. وارتوت هند وشكرت الله بعينين مندهشتين تبصران فى ذهول الى الأفق .. وحاول أن يحتضنها بذراعيه حتى يصل بها الى السيارة .. لكنها شكرته على حسن صنيعه وقالت له :

ـ أنا يا سيدى قادرة على المشى .. جزاك الله خير الجزاء ..

وتبعته وبعد خطوات قالت :

ـ الى أين يا سيدى ..

الرجل ـ ولما سيدى .. أنا لست سيداً .. ما اسمك ؟

ـ هنـد ..

الرجل ـ اسمى رافع وعمرى أربعون عاماً يعنى ممكن أن تقولى لى يا رافع ..

هند ـ الى أين يا رافع ..

رافع ـ الى بيت أمى .. مكان أمين ..

هند ـ وأين بيت أمك .. اذا كان فى هذه المدينة التى هناك فانى لن أذهب معك أبداً ..

رافع ـ ان أمى فى مدينة بالشمال ..

هند ـ أمى تسكن فى هذه المدينة .. العاصمة .. وطفلتى معها وأبى وكل أسرتى .. ورغم ذلك فانى أريد الهجرة من هذه المدينة الى أى مدينة ولتكن عبر الحدود .. ان الاخوان يطاردونى بقسوة وهذه احداها ..

رافع ـ ستجدين الراحة فى الشمال .. أعرف كل حكايات الاخوان ربنا يكفينا شرهم ..

هند ـ وكيف تأخذنى الى أمك وماذا ستقول لها ..

رافع ـ قولى لها أنت .. لقد تعلمنا أن نعمل الخير فى كل الناس ..

هند ـ أنا امرأة غريبة الأطوار .. دعنى أعود الى الغابة حتى أقضى نحبى .. انها أفضل عندى من أى مدينة ..

رافع ــ فى بيتنا أشجار مثل هذه .. وسوف تحكى لك أختى قصصاً كثيرة ..

هند ــ ان باب الله مفتوح ليغفر للذين يريدون وجهه ..

وفتح لها باب العربة وساعدها فى الجلوس بالمقعد الأمامى .. وعدلت من شعرها ومسحت بعض الأوساخ التى بنفنوفها .. وفى المقعد الخلفى مد رافع يده وأمسك بعباءة سوداء من الصوف هى عباءة أمه كثيراً ما تتركها بالعربة .. ولفت هند جسدها كله بالعباءة حتى رأسها وجلت بناظريها نحوه وقالت :

ــ والله صدق .. من يتق الله يجعل له مخرجاً .. لقد رأيت بعينى .. وزفرت بقوة وأردفت قائلة .. والله أنا لا أصدق ما يحدث .. يا الهى ..

رافع ــ ولنقرأ فاتحة الكتاب ..

فابتسمت هند ورفع كل منهما يديه الى أعلا وأخذ يقرأ ..

وساد الصمة لحظة .. واخترقت العربة الطريق الخال الى الشمال .. من أجل مزيد من الأمان .. وقليل من الحرية ..

ومرت ايام أخرى نزل سلامة فيها ثلاث فنادق .. كان آخرهم فندقاً بحى الفرافرة .. وفى ليلة جاءه رجل كانى كلفته ريما بالبحث عنه مقابل مكافأة كبيرة .. جاءه الرجل الكانى بعد أسبوع من البحث والمسح فى كل المدينة .. وناوله رسالة فى ظرف مقفول .. وأخبره وهو ينصرف على عجل أن ينفذ

ما فيها فوراً وأنه سوف يبلغ سيدته بأنه سلمك الرسالة .. وقفل غرفته وفض الرسالة ..

لا تحية ولا سلام عليك ..

يا سلامة أنت تنام فى العسل ولا تدرى كم أن الظروف خطرة من حولك .. عندما ينسدل الليل هذه الليلة .. تسلل الى بيت السيدة العجوز عند الجسر .. سوف أحضر اليك فى المساء .. بعد المغرب بقليل .. سيناديك سائق العربة بكلمة داود .. داود .. عندما تسمع هذه الكلمة .. اطلع الى الجسر ستجدنى أنتظرك فى عربة لونها أخضر .. هل تسمعنى .. هل تفهم .. نفذ ..

.. ريما ..

وقام يجمع ملابسه وحاجياته فى الحقيبة .. وتمنى أن تقترب لحظة الهجرة من هذه المدينة .. وتساءل والهلع يملأه .. وهل أصل الى السيدة العجوز فى سلام .. ترى الى أين ستذهب وهل اذا كان الشمال حقاً كما وعدتنى ريما .. فهل الطريق طويل الى هذا الشمال .. ولما أقبل المساء بلغ الخوف حلقومه وكان قلبه يدق بسرعة مخيفة وانقبض شىء فى صدره وتسلل من الفندق بعد العصر بقليل .. كان يشعر بالهواء يخنقه .. وأن هناك أياد ستمتد اليه تخنقه وتقبض على روحه .. ورغم أن الشوارع تمتلأ بالمارة الا أنه لم ير أحداً .. وتخبط بين الناس حتى ركب باصاً يحمله قرب الجسر .. ليمشى فى طريق قرابة نيف ساعة حتى وصل الأرض التى تلف

بيت السيدة العجوز من أعلا .. وكاد ينبطح على الأرض ليحضنها .. ونزل الى البيت منحنياً وهو يسك بحبات الرمل الساخن .. وسقط فى حفرة وكأن واحداً دفعه من الخلف .. وكانت قبضة واحد قد دفعته بالفعل ولما حاول النهوض كانت قدماه لا تقدران على حمله لأنه اعتقد أن هذه أيادى الجماعة.. ونظر الى أعلا فوجد رجلا ضخماً لونه أسود وكأنه عبد من الحبشة ومد الأسود يده اليه قائلا :

ـ تعال ..

ولم يكن سلامة لديه أى شجاعة حتى يرفض فسلم له يده .. وشده الرجل الى أعلا فى عنف .. وسقط سلامة عند قدمه ونهته فى كلمات لم تستطع أن تخرج من فيه .. وضربه الرجل على كتفه وأوقفه قائلا :

ـ لماذا تأت الى هذه السيدة الليلة ؟..

سلامة ـ هى مثل أمى وأت لزيارتها ..

الرجل ـ لقد ماتت ..

سلامة ـ بالله .. أحقا ماتت ..

الرجل ـ تعال نزورها فى قبرها ..

ونزل سلامة مع الرجل وأمام بيت العجوز بخطوات وضعت لافتة نقشت على الحجر تعلو الأرض بقليل مثبته على جدران شيد من نفس الحجارة .. كتب عليها .. سيدة البحر الطيبة.. وبكى سلامة .. وتركه الرجل يفعل وجلس كل منهما على الأرض .. وكان البيت مقفلا صامتاً تجردت الحياة من حوله ..

فأى معنى للحياة بعد الموت .. وأخـذه الرجل ثانية من يده وربت على كتفه قائلا :

ـ لا تسرف فى الحزن .. تعالى ..

سلامة ـ الى أين يا سيدى ..

الرجل ـ الى المدينـة ..

سلامة ـ أرجوك لن أذهب الى هذه المدينة ثانية ..

الرجل ـ ولن تستطيع أن تبق هنا ..

سلامة ـ لى موعد هنا مع ناس ..

الرجل ـ مع داود ..

تلعثم سلامة وقال :

ـ داود ..

الرجل ـ ضياء بن على .. الشهير بداود ..

وسحبه الرجل وطلقا فى طريق ضـيق الى فوق وقابلتهما فتحة فدخلا فيها .. واذا بهما يشرفان على الجسر .. وتقدمت مركبة طويلة خضراء .. نادى سـائقها ..

ـ يا داود .. يا داود ..

يالها من مفاجأة .. مفاجأة .. هكذا قال لنفسه .. وابتسم الرجل الأسود له مداعبا .. وأخذه الى العربة .. وهزت سيدة جميلة رأسها فى ثقة .. كانت تجلس فى المقعد الخلفى وكأنها تقول .. الزم مكانك ليكن لديك شىء من عزم الرجـال .. وفتح الرجل الأسود الباب ودخل سلامة بجوار ريما .. والتى فتحت حقيبتهـا وأخرجت منهـا ظرفا ناولته للرجل الأسـود

فأخذه شاكراً ولوح بيده وابتسم كرة أخرى فنورت أسنانه ..
وتحركت العربة .. وكان سلامة يمسك بتلابيب نفسه في محاولة لتهدئة أنفاسه المتهدجة .. وابتسمت ريما ابتسامة عريضة تنم عن الرضا وقالت في تؤدة :

ـ على بركة الله ..

واخترقت العربة ظلام الليل وكلما اتجهت نحو الشمال كانت السماء تنور .. ولم يكن في الآفاق قمر أو نجوم مضيئة .. شيء مثل الحب والحرية ينبض في قلب كل واحد منهم ..

.. انتهت بحمد الله وعونه ..

رقم الايداع بدار الكتب ٩٤/١٠٧٧٩

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والمسح الآلي
الأزهر / ٣ صفايات الموصلي بجوار جامع الفار